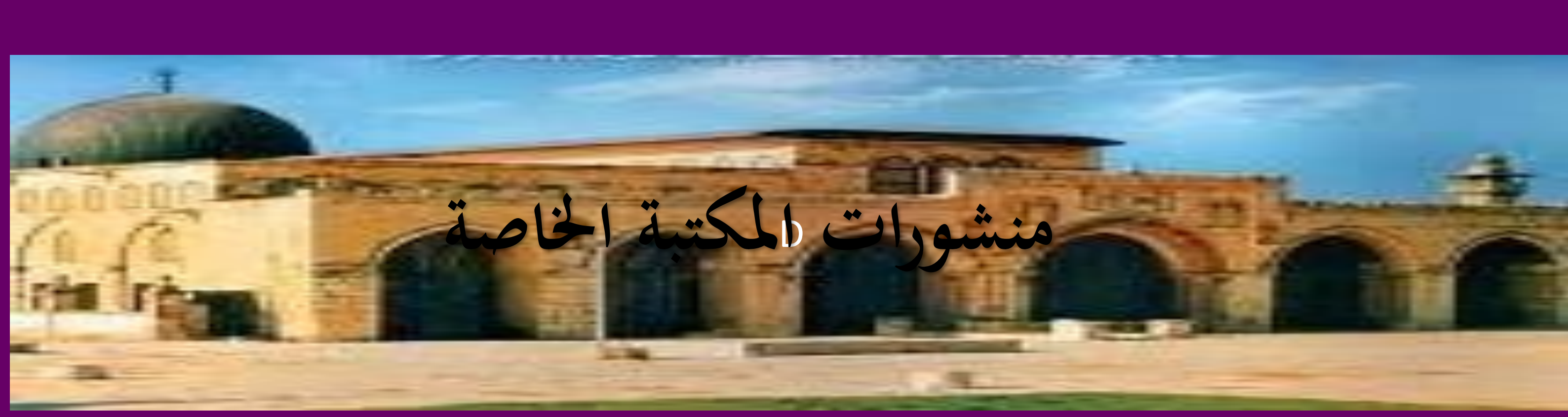




هو أنت لاجئ

جمال شاهين



منشورات المكتبة الخاصة

هو
أنت لاجىء

روايات

قلب الوطن

٢

جمال شاهين

٢٠١٨

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات قلب الوطن

جمال شاهين

هو أنت لاجىء

جمال شاهين



الهجرة

أهل الشمال الفلسطيني هاجر أكثرهم للبنان وسوريا نتيجة أحداث فلسطين عام سبع وأربعين وثمان وأربعين ، فخرج حمدان وعائلته تجاه بيروت ، فهو من أهالي صفد ـ ولصفد علاقات تجارية مع أهالي بيروت وصور وصيدا والشام ـ ولحمدان ابن اسمه عامر ، وعند الخروج الكارثي كان طالبا في الجامعة الأمريكية البيروتية ، يدرس اللغة الإنجليزية ؛ ليعود مدرسا في البلدة أو عاملا في الإدارة الإنجليزية المنتدبة على فلسطين ، بعد إعلان الانتداب الإنجليزي عليها من قبل عصبة الأمم عام ١٩٢٠ .. كانت فلسطين والشرق العربي تمر بأوضاع وزمن صعب .. انسحب الأتراك بعد حكم مديد ، ودخل الإنجليز دولة الاستعمار الكبرى ودولة وعد بلفور .

تأسست منظمة الهاجاناه الصهيونية في العام ١٩٢١ في مدينة القدس في الفترة السّابقة لإعلان دولة إسرائيل ، وهي تكتّل عسكري صهيوني ، كان الهدف المعلن من تأسيسها الدفاع عن أرواح وممتلكات المستوطنات اليهودية في فلسطين خارج نطاق الانتداب البريطاني ، وبلغت المنظمة درجةً من التنظيم مما أهّلها لتكون حجر الأساس لجيش إسرائيل الحالي، وقد بلغت قسوتهم إلى أن قتلوا ٣٦٠ فلسطينيا في قرية دير ياسين ، عرفت العصابات الصهيونية بتاريخها الأسود مع البدايات الأولى لاغتصاب فلسطين، حيث تعود ولادة هذه العصابات الإرهابية إلى تطور "الاستيطان الصهيوني في فلسطين"، الذي شكل المقدمة لولادة عصابة "هاشومير" الصهيونية عام ١٩٠٩ والتي تطورت في ظل الاستعمار البريطاني وأصبحت المنظمة العسكرية السرية للحركة الصهيونية. فأنشأوا في يونيو ١٩٢١ منظمة جديدة تحل محل الهاشومير أطلقوا عليها اسم منظمة "الهاجاناه" وهي ذات تجهيزات وقدرات أعلى من الهاشومير ، كانت في بداية أعوامها التسع الأولى قادرة على حفظ الأمن والأمان للشعب الصهيوني الجديد، وكانت تدار من قبل إدارة مدنية يتزعمها "يسرائيل جاليلى"، وما إن اندلعت الثورة العربية في عام ١٩٢٩ والتي خلفت نحو ١٣٠ قتيلا صهيونيا، حتى انضم إلى

المنظمة آلاف من الشباب الصهيوني المتطرف، وشرعوا في استيراد السلاح من الخارج، وإنشاء الورش لصناعة القنابل اليدوية والمعدات العسكرية الخفيفة، وتحولت إلى جيش نظامي فعلي بعد أن كانت مجرد ميليشيات ذات تدريب بدائي، وفى عام ١٩٣٦ بلغ عدد مقاتلي الهاجاناه نحو ١٠٠٠٠ مقاتل، إضافة إلى ٤٠٠٠٠ من قوات الاحتياط ، وخلال ثورة ١٩٣٦ قامت الهاجاناه بحماية المصالح البريطانية في فلسطين وقمع الثوار الفلسطينيين على الرغم من عدم اعتراف القيادة البريطانية بالهاجاناه، فإن الجيش البريطاني أبدى تعاونا كبيرا في أمور القتال والتأمين، وفي ١٩ مايو عام ١٩٣٦ تشكلت فرق البالماخ .

انشق اليمين المتطرف بقيادة إبراهام تيهومى، من منظمة الهاجاناه، وأنشأ منظمة جديدة أسماها منظمة "الأرغون"، وكانت هي التي تصب الجحيم على أبناء الشعب الفلسطيني ، والأرغون تعنى "المنظمة العسكرية القومية"، وهى تكتل عسكري إرهابي أذاق الشعب الفلسطيني الويلات، تلقت المنظمة دعما سريا قويا من الحكومة البولندية ابتداء من ١٩٣٦ لتهجير اليهود من بولندا لتطهير المجتمع البولندي من الشريحة اليهودية ، حيث إنهم كانوا من أفقر طبقات المجتمع البولندي ، وفى عام ١٩٤٣ تولى مناحيم بيجن قيادة المنظمة، وبعد قيام الدولة العبرية وإعلان الحكومة المؤقتة تم تفكيك كل المنظمات العسكرية لتكوين الجيش الإسرائيلي، كانت الأرجون إحدى هذه المنظمات، ما أدى لحدوث تصادم بينها وبين الهاجاناه أدى في النهاية لاستسلام الأرجون وإلقاء سلاحها.

خلال الثورة الفلسطينية التي قامت ضد الانتداب البريطاني عام ١٩٣٦-١٩٣٩ قامت العصابة الصهيونية "أرجون" بما يزيد عن ٦٠ عملية إرهابية ضد الفلسطينيين العرب ، إضافة إلى مهاجمتها قوات الاحتلال البريطاني، وقد تم وسم هذه العصابة بصفة الإرهاب من العديد من المنظمات العالمية ، شنت عصابة الأرجون الإرهابية سلسلة من الهجمات بعد نشوب الحرب العالمية الثانية راح ضحيتها ما يزيد عن ٢٥٠ من العرب الفلسطينيين في تلك الفترة.

عصابة شتيرن وتعد من أكثر الميليشيات الصهيونية شراسة وشهرة ، بعد الانشقاق الذي

حدث في صفوف منظمة الأرجون الصهيونية في أعقاب موت السياسي اليهودي المجرم العتيد جابوتنسكي في عام١٩٤٠ ، قام اليهودي إبراهام شتيرن بتأسيس مجموعة أطلق عليها اسم "المحاربون من أجل حرّية إسرائيل" والتي تُعرف باسم "شتيرن" نسبة إلى مؤسسها، ويعود السبب الرئيسي لإنشاء جماعة شتيرن لرغبة مؤسسها وأتباعه العمل المستقل خارج نطاق وتوجيهات المنظمة الصهيونية العالمية، بل وحتى بعيداً عن مظلّة الهاجاناه، الذراع العسكري للمنظمة الصهيونية على أرض فلسطين قبل إعلان دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ وبمرور السنين، تلاشت منظمة شتيرن داخل جيش الدفاع الإسرائيلي ، ولا تمرّ ذكرى مقتل شتيرن مرور الكرام ، إذ يقوم السّاسة الإسرائيليون ومسؤولو الحكومة بحضور تأبين ابراهام شتيرن في كل عام ، وقامت الحكومة الإسرائيلية في العام ١٩٧٨ بإصدار طابع بريدي يحمل صورته ، من الجدير بالذكر أن قائد عملياتها الوحشية في أواخر الأربعينات اسحق شامير أصبح فيما بعد رئيسا للحكومة الإسرائيلية.

هرب حمدان بذريته وأحفاده نحو الشمال ، واستقر به المقام في مخيم برج البراجنة الملحق بذلك الحي من بيروت ، فهذا المخيم أنشئ عام ثمان أربعين لاحتواء عدد من اللاجئين الفلسطينيين الذين هربوا من ديارهم وأموالهم ، الهاربون من بطش عصابات الجيش الصهيوني الغاشم .

كان أكثر الهاربين يقطعون الجبال والوديان مشيا على الأقدام حفاة شعثا ، وبعضهم تمكن من حمل بعض المتاع على عربات تقودها الدواب المتيسرة لمن يملكها ، استقر حمدان وبعض إخوته وأقاربه ببيروت أملا بوجود فرصة عمل ، فهي إحدى العواصم العربية المهمة في ذلك الوقت وكان الناس على أمل العودة السريعة لمدنهم وقراهم وزراعاتهم بتدخل جيوش الدول العربية السبعة للقضاء على عصابات الجيش الإسرائيلي .

ولقد سمى الناس هذا العام بعام النكبة ، بعام النكبة الفلسطينية ؛كما كتب عارف العارف في كتابه الذي سماه النكبة ، لقد كان هذا الخروج كارثة كبرى على الأمة الفلسطينية ، فقد طال التشرد أغلب سكان الساحل الفلسطيني رغبة بالحياة والحفاظ على أعراضهم ، فقد بلغ عدد

الهاربين ما يقارب المليون إنسان ، لقد دمرت ٤٧٨ قرية من أصل ٥٨٥ وقيل أكثر ، وهجرت الصهيونية سكان ٥٣١ قرية خارج ما يسمى إسرائيل ، لم يستوعب الناس الصدمة بسهولة ويسر ، وكما ذكر بعضهم ظنوا أنها بضعة أيام أو أسابيع وتنتهي هذه المعاناة وذلك التشرد والعودة للبيادر والحصاد والموسم ، ونتج عن هذه النكبة ظهور عدد كبير من المخيمات في لبنان وسوريا والأردن ، ثم بما سمي بالضفة الغربية وقطاع غزة ، تفرقت الأسر شرقا غربا شمالا جنوبا ، تمزق أهالي البلدة الواحدة إلى بلدان ، كانت إسرائيل المختلقة قد أعلنت ميلاد دولتهم في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨، وكان ذلك على أثر إعلان بريطانيا الانسحاب يوم ١٥/ ٥/ ١٩٤٨ من بلادنا فلسطين .

وبذلك انتهى الانتداب الظالم الذي جيء به حاكما على فلسطين لتدريب الشعب على الحكم والإدارة والاستقلال ، ولم يتدرب الشعب على الإدارة والحكم ، فلم تتكون لهم دولة ، وظهرت دولة جديدة في غرب فلسطين حسب قرار تقسيم فلسطين عام ٤٧ سموها دولة إسرائيل !

وبعد إعلان ما يسمى استقلال إسرائيل عن بريطانيا اشتعلت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى في القرن الماضي ، اشتعلت الحرب لإعادة الهاربين الذين سموا باللاجئين ـ ومازالوا لهذا اليوم يحملون هذا الاسم ، ويعيشون في مخيمات اللجوء ـ وصدّق الناس هذه النوايا ، ثم انهزمت تلك الجيوش السبعة هزيمة نكراء ، وجرجرت قواتها وعادوا من حيث زحفوا ، ولها حديث في مكان آخر ، فأصبحت أرض فلسطين تحكمها ثلاث دول إلا الشعب والأمة الفلسطينية ، الدولة الوليدة من رحم الصهيونية التي استولت على أغلب الساحل الغربي من فلسطين ، ومصر استولت على غزة وما حولها ، وأنشأت حكومة عموم فلسطين التي لم يعترف بها إلا مصر ، وضمت ما سميت بالضفة الغربية لشرق الأردن المملكة الأردنية الهاشمية التي اعلن استقلالها عام ١٩٤٦ قبل النكبة بعامين.

البؤس والفقر عنوانا تلك الأيام من حياة الأمة الفلسطينية ، كان أغلب الشعب يعمل في الزراعة والفلاحة ، فهو يعتمد بعد الله ﷻ على إنتاج الموسم الزراعي ، فتدب بهم الحياة

والرفاهية من الموسم إلى الموسم .

وخلال الرحيل من المدينة ولدت زوجة عامر حمدان ـ الطالب من سنوات في جامعة بيروت الأمريكية ـ وفقدت طفلتها ، ومرضت الأم مرضا شديدا ، ، ولم تجد تلك الحامل العناية الطبية المناسبة ، فماتت بعد الوضع والوصول للمخيم الملاصق لبرج البراجنة في منطقة بعبدا ببيروت وكانت من ضحايا الهجرة القسرية والتطهير العرقي الذي قامت به الصهيونية العالمية ودوّل الاستكبار العالمية .

عامر حمدان أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في مدينة صفد ؛ حيث يسكن والده التاجر الصغير في تلك البلدة ، ولما أنهى المرحلة الثانوية عام ست وأربعين تقرر أن يسافر للدراسة في جامعة بيروت الجامعة الأمريكية التي أسست عام ١٨٦٦ من قبل المبشر الأمريكي دانيال بلبس ، فلم يكن في فلسطين أي جامعة عربية قبل ١٩٤٨ .

الأهل قبل سفره لبيروت والغربة للدراسة ؛ ليعود ليعمل مدرسا أو موظفا في الإدارة الإنجليزية المنتدبة على فلسطين زوجوه من ابنة خالته خوفا عليه من نساء بيروت وفاتنات بيروت ، خوفا عليه من الالتهاء بفتيات الحانات ؛ كما كانت الدعاية عن بيروت تلك الأيام .

فتزوج حسب التقاليد الشعبية المنتشرة في وطنه ، ثم سافر بعد أن قُبل وسكن مع بعض الطلبة الفلسطينيين في برج البراجنة ببيروت ، وقد ولدت له المرأة ابنه جابرا أثناء الغربة ، ولما حملت البطن الثاني حدثت النكبة والتهجير القسري الذي ما زالت آثاره لليوم ، وبعد شهور يسيرة هلكت في المخيم الذي أنشئ للمهاجرين الذين وصلوا لبيروت لوجود بعض أقاربهم ومعارفهم في بيروت حيث فرص العمل أكثر من صور وصيدا ، حيث أقيمت مخيمات أخرى للمهاجرين ، ولما أعلن عن وكالة الغوث ، وتسلمت مهمة رعاية شؤون المهاجرين الذين سموهم اللاجئين فتحت مدارس لتعليم الشعب العربي الفلسطيني ، وتوفير العمل والعلاج لهم وغير ذلك ، فأقامت الوكالة الخيم ابتداء لتدريسهم ، فلما تخرج عامر من الجامعة بليسانس تعليم عمل في الوكالة بصفته لاجئ فلسطيني .

ولما انتهى الحزن التقليدي عن وفاة زوجته تزوج امرأة بيروتية عرفها أثناء حياته في بيروت اسمها نهى خالد ، فولدت له بنتا سماها نورا وعددا آخر من الصبية خلال السنوات .

امتد الصمت الفلسطيني من انتهاء حرب ثمان وأربعين حتى أربع وستين حيث أعلن عن كيان سموه منظمة التحرير الفلسطينية ، بدعم قوي من ناصر حاكم مصر الجمهورية ، ولا يعني هذا أنه لم تكن هناك أحداث مهمة وتجمعات فلسطينية لتحرير فلسطين ، وكسر الصمت العربي والفلسطيني ؛ لكن الصدمة كانت كبيرة لم تستوعبها الأمة الفلسطينية بسهولة كان البحث عن لقمة العيش صعبا ومهينا ، كان البؤس قاتلا ؛ فكان الشباب يتناثر في البلدان العربية والعالم ، وكانت الكثير من دول العرب تحت يد الاستعمار الإنجليزي أو الفرنسي ، والهيمنة الأمريكية المنتصرة في الحرب الكونية الثانية .

لقد كانت المجازر اليهودية مستمرة على الشعب الفلسطيني والعربي المجاور لفلسطين ومتلاحقة ، فكنت ترى الاشتباكات مع الجيش العربي الأردني الحاكم للضفة الغربية والعدوان المستمر على غزة والعدوان الثلاثي على مصر ، والانقلابات العسكرية هنا وهناك ، فكنت ترى انقلابا في مصر ، وآخر في سوريا ، وثالث في العراق وإيران وتركيا ، ثم كان استقلال دول المغرب العربي عن فرنسا .

الأحداث كثيرة وكبيرة ومتلاحقة ، وتوسع الفكر القومي ونشط وحكم بظهور قومية عبد الناصر والبعث السوري والعراقي والاشتراكية والشيوعية ، خلط معقد ومدمر ، وانتهى الأمر بظهور كيان اسمه منظمة التحرير لتحرير فلسطين من اليهود المحتلين للساحل الغربي منها .

وكان الفلسطينيون في حيرة كبيرة لم تظهر زعامة تقودهم لتحرير بلادهم ، زعامة يلتف حولها أغلب الشعب ، كانت زعامات كثيرة وأيدولوجياتها متعارضة متناقضة ، كانت مخيمات اللجوء قمة البؤس والشقاء واليأس والتعاسة للمشردين ، وتمثل الحياة القاسية للعائلات المصدومة المشردة .. ويقال هو لاجئ يعني اصمت لا حقوق سياسية في الدول المضيفة ولا اقتصادية ولا اجتماعية .

فكان حمدان المهاجر يعيش أياما كئيبة صعبة ، ذكريات حلوة تركها في قلب صفد رغم الانتداب ، وحياة بؤس في قلب بيروت ، وعائلة كبيرة مشردة ، فيرى الموت هو الحل الأمثل من شدة الفقر والبؤس ، مساعدة الوكالة التي لا تغني من جوع ولا تطعم هذه الأفواه ؛ إنما تسد الرمق ، وحتى أهل البلاد أغلبهم فقراء يحتاجون لمساعدة ، فالدول العربية أغلبها تحت الاستعمار ، والمستقل ما زال يعتمد على المستعمر مالا وتسليحا ورعاية ، والصراعات على الحكم مستعرة بين رجالات الحكم .

وكان قد زوج ولده عامر قبل الخروج للدراسة في بيروت ، وترك حازما الأكبر الذي لم يكمل دراسته ، والذي عمل في حرفة ؛ فكان عليه بعد الهجرة أن يزوجه ، وكان قد زوج ابنتين قبل الرحيل بثلاث أو أربع سنوات ، ولما رأى حازم الفقر والبؤس هاجر للكويت كعدد كبير من الفلسطينيين وأجل الزوج ، وأما عامر الذي تزوج وماتت زوجته بعد الهجرة بحملها الثاني ، فلما تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت وتعين في مدرسة تابعة للأونروا ، ولم تمض سنة واحدة على عمله حتى تزوج نهى ، وسكن بيتا في برج البراجنة قريبا من المخيم ، وساعد الأسرة ؛ ولكن مساعدته لم تكن ذَا قيمة لأسرة مشردة ثلاث بنات وثلاثة أبناء دون العشرين ، وأعمام وعمات وأخوال وخالات يعيشون نفس الظروف .

عمل حمدان خمس سنوات في الوكالة ، ثم استغني عنه نتيجة مرض تعرض له أقعده عدة شهور فأخذ يعمل على عربة لبيع الترمس والكعك أمام مدرسة أو مقهى أو أمام البيت .

وكان من نتيجة وصدمة التشرد يغيب ذهنه ويسرح مع الماضي ويغمره النسيان ، كان يتحدث مع زوجتيه ويتسأل : هل سيبقى هؤلاء الفتيان على مقاعد الدراسة ؟ فلم تكن مساعدة عامر تفيد الأسرة شيئا .. وهو عنده ولد وزوجة ، ويستأجر بيتا .. والابن المهاجر للكويت لم يرسل لهم أي مساعدة .. هو الآخر لم يتزوج .. فهو أكبر من عامر .

فقالت أم حازم الزوجة الأولى : ليس لنا قوة إلا بإكمالهم التعليم يا أبا حازم .

وهكذا قالت الزوجة الثانية أم محمد .

فقال بحزن : ما أعمله لا يسد رمق هؤلاء الناس فكيف سيعلمهم ؟!



قالت : أولادي راغبون بالدراسة مثل عامر .

وهكذا كان قول أم محمد .

فقال بأسى : لم نعد نسمع أخبار حازم ، وهو بحاجة لزوجة ، ونحن كنّا نستعد لزواجه بعد انتهاء عامر من الجامعة ، وعامر تزوج كرة أخرى بعد ترمله .. وأنا زوجته لم تعجبني ومستهترة بالحياة ؛ ولكنه تعرف عليها أثناء الدراسة كما يقول .

قالت أم حازم : أحوال حازم كما يقول أخي تامر مقبولة ، ويعمل بشكل جيد ، ولما يتمكن من العمل في إحدى الوزارات الكويتية يمكنه زيارتنا .

فقال ناسيا : ماذا يعمل هناك ؟!

قال أمه : اشتغل كما يقول شقيقي في النجارة والصيد ..فالكويت بلاد حارة .

فقال : هو حازم ماذا يعمل ؟

قالت : كان نجارا قبل الهجرة كما تعلم ، ويعمل بنفس مهنته قبل النكبة .. وتعرف على بعض الكويتيين ومن المهاجرين مثلنا .. ويتعاطف بعض الكويتيين مع قضيتنا وشعبنا ، ويدعموننا لعمل ثورة تعيدنا لبلدنا ..

هتف حمدان مدهوشا : ثورة في الكويت ! على من ؟!

قالت : ثورة على اليهود .. فهناك المهندس ياسر عرفات وأبو جهاد كما ينتشر لعمل ثورة .

تنهد بعمق المأساة : عرفنا هذه الأسماء هنا ، فلهم دعاة ينتشرون في المخيمات مبشرين بثورة يقودها الشعب الفلسطيني بدلا من الأنظمة التي تتاجر بقضيتنا ، كلما فعل أحدهم انقلابا يزعم أنه من أجل فلسطين .. لقد ذكرت بعض المجلات كما يقول عامر تنشر أو تسرب مثل هذه الدعاية وحتى في مدارس الوكالة ؛ ولكن الكويت بعيدة عنا .

قالت : هذا ما سمعته من أخي في زيارته الأخيرة للمخيم ، وينشط معهم ولدنا حازم لدعم القضية .. والله لا ندري هل سنعود لبلدنا في يوم ما أم نموت هنا ؟ كما ماتت ابنة أختي وابنتها وعمي احمد ووالدك عمران .

قال بحزن : الأعمار بيد الله يا أم حازم .

قالت أم محمد : ثورة ست وثلاثين خذلها الزعماء العرب ..هل سيحاربون معنا وعنا ؟

قال بأمل : القلوب تتغير يا أم محمد .

قالت أم حازم بحماس وشك : تامر يقول ستكون ثورة قوية تزيل اليهود من أرضنا وتحرر كل فلسطين من النهر إلى البحر .. هو هم وصلوا النهر يا أم محمد ؟

قالت : وصلوا طبريا والبحيرة قرب النهر .

قال وكأنه غير مصدق بالعودة القريبة : والله نسمع من الناس الكثير من الكلام والحماس عن الثورة القادمة .. فها هم الثوريون هنا يقولون مثل ذلك مثل شفيق وحبش وممن يسمون أنفسهم بالثوريين والمحررين والمعجبين بحاكم مصر الذي حرر القناة من الإنجليز .

قالت : الكل يقول أنه جدع ويساعد أهل غزة ويدربهم كما نسمع ، وأبي يقول إنه يدعم أحمد لإنشاء المنظمة ؛ لتكون كيانا لأهل فلسطين .



الثورة

الأول من يناير عام خمسة وستين أعلن الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات عن انطلاق حركة لتحرير فلسطين سماها فتح ، وجناحها العسكري أسموه العاصفة ، وأعلنت الكفاح المسلح لتحرير الساحل الفلسطيني المحتل من قبل إسرائيل عام ثمانية وأربعين ، وتقبل بعض العرب الأمر على توجس وريبة ؛ لأنه قبل شهور أعلن عن قيام الكيان الفلسطيني منظمة التحرير بدعم من مصر ودول عربية ، وأنشئ جيش التحرير الفلسطيني في غزة وسوريا والأردن ، وكان هناك المعارض لوجود هذا الفصيل الغامض الذي لم يكشف عن أوراقه بعد ، وقام بعدة عمليات عسكرية في غزة والضفة الغربية ضد اليهود .

واستبشر الكثير من أبناء المخيمات بظهور هذه الحركة المستقلة عن الدول العربية ؛ كما بدا للوهلة الأولى ، وبدأت تظهر للعلن معسكرات لتدريب الشباب في معسكرات ظاهرة في لبنان والأردن والضفة وغزة ، وظن الكبار أن فلسطين اقترب تحريرها من المغتصب ، وشطب اليهود من الوجود بأيدي أبنائها ورميهم في البحر الأبيض ، وأن زمن التشرد والخيم والبراكيات والبؤس على وشك الزوال بالعودة للديار والأشجار ، يصحب ذلك الجو المتفائل مع كل بيان يصدر باسم تلك الحركة التحريرية ، وبدأت بعض الفصائل الثورية الأخرى تعلن عن فصائلها العسكرية تباعا .

وتهافت الشباب البائس المتعطش لصوت التحرير يندفع نحو معسكرات التحرير بشكل أقوى من الأول ، فقد أصبح تحرير الأرض على مرمى حجر ، والحماس يرتفع يوما بعد يوم ، حتى أن عامرا المناضل القومي كان يترك المدرسة والتدريس ليتدرب على السلاح أكثر من الأول ، ورأى أن وجوده في منظمة فتح أفضل من حركة القوميين العرب ، وترك التفكير بالرحيل للكويت ، والعمل فيها كمدرس ، وفكر بالاستقالة من مدارس الوكالة ، واعتذر لشقيقه حازم عن السفر فتحرير البلاد أولى من تحسين الدخل المالي ؛ فقد لمس بؤس المشردين في بيروت وعموم لبنان ومعاناة الفقر والمرض والهزال والعري حتى أن الناس تخيط شوالات المؤن ملابس داخلية للفقر

والحاجة ، لهم سنوات يحيون حياة اليأس والأمل ؛ فكان يتدرب مع الكبار فترة المساء ، وقد أنشئت معسكرات للصغار والأحداث وسموا بالأشبال ، كان لدى اللاجئون أمل بقرب العودة أمام الخطابات النارية للزعماء وللعمليات التي تصدر عن قيادة النضال الفتحاوي، وكان فريق يشكك بصدق تلك العمليات ، وبعضهم يصدق حدوثها ، ويرى أنها تضخم لرفع الروح المعنوية لسكان مخيمات اللجوء الكثيرة، وجلب المزيد من المتطوعين والمناضلين .

وتراه يقول لزوجته نهى : الفجر اقترب أن يسطع نوره ، ونعود يا أم نورا لبلادنا في صفد إنها اجمل وأروع من هذه المدينة المكتظة بالأجناس المتنوعة ، ونعود لتلك البساتين الجميلة ، وإلى دور الآباء والأجداد .

فحلم العودة كان يراود الفلسطيني في كل مكان وزمان وما زال ، فأقرأ ما قال شاعر العودة:

إننا لعائدون

عائدون عائدون *** فالحدود لن تكون

والقلاع والحصون *** فاصرخوا يا نازحون

إننا لعائدون

عائدون للديار *** للسهول للجبال

تحت أعلام الفخار *** والجهاد والنضال

بالدماء والفداء *** والإخاء والوفاء

إننا لعائدون

عائدون يا ربا *** عائدون يا هضاب

عائدون للصبا *** عائدون للشباب

للجهاد في النجاد *** والحصاد في البلاد

إننا لعائدون

قصيدة لاجئ للشاعر هارون هاشم رشيد:

أنا لن أعيش مشردا
أنا لن أظل مقيّدا
أنا لي غدٌ وغداً
سأزحف ثائراً متمردا
أنا لن أخاف من العواصف
وهي تجتاح المدى
ومن الأعاصير التي
ترمي دماراً أسودا
ومن القنابل .. والمدافع
والخناجر ... والمُدى
أنا صاحب الحق الكبير
وصانعٌ منه الغدا
أنا ثورةٌ كبرى تزمجر
بالعواصف والردى
أنا لاجئ وطني استبيح
وداسه غدر العدى
أنا نازح داري هناك
وكرمتي .. "المنتدى"
وطفولتي درجت على
أرض البطولة والندى
وصباي كم نهل المنى
فوق الروابي واغتدى
وشبابي المشبوب كم
حمل الكفاح وكم شدا
وبطولتي نبتت هناك
وأينعت تحت الندى
بين الصخور الداميات
مع النسور مع الهدى
صرخات شعبي لن تضيع
ولن تموت مع الصدى
ستظل لسعاً كالسياط
على ظهور من اعتدى
ستظل في أجفانهم
أبداً لهيباً مرعدا
وطني هناك ولن
أظل بغيره متشردا
سأعيده .. وأعيده
وطناً عزيزاً سيدا
سأزلزل الدنيا غدا
وأسير جيشاً أوحدا
لي موعد في موطني
هيهات أنسى الموعدا

الاعتزال

اشتعلت الحرب الأهلية في لبنان فعليا سنة ٧٥ ، ودخلت الفصائل الفلسطينية المعارك للدفاع عن نفسها ، والوقوف مع حلفائها اللبنانيين .

أنهى الأستاذ عامر خدماته مع وكالة الغوث ، وفي نفس الوقت اعتزل العمل الثوري بسبب إصابة تعرض لها من اعتداء على أحد معسكرات الثورة ، وقد نجا من موت كما يقال بأعجوبة ، ولما شفي أصبح خارج التنظيم ، وظل مستقرا في شقته المستأجرة في منطقة برج البراجنة القريبة من المخيم من مطلع الخمسينات ، وكان يجلس في البيت مع زوجته نهى خالد التي رافقته الحياة منذ ماتت أم ولده جابر الذي درس في جامعات بيروت ، وأصبح محاميا يعمل في العاصمة ، وقد تزوج فتاة من أصول لبنانية تعمل معه في الشركة.

فقالت له نهى خالد : إن ابنتنا نورا ترغب بالاقتران بالطبيب داني ابن صديقك معزول وفاتن .

حدق فيها وهز رأسه وقال بحسرة : ألم تجد إلا هو ؟!

قالت : هذا ما قالته لي من مدة !.. وأنا أحاول إقناعها بالابتعاد عنه ، وإنها ما زالت طالبة .

قال مرددا ساهما : إنها ما زالت طالبة ! ولماذا اختارها وهي طالبة ؟

قالت : الحب كما يزعم شباب اليوم.

قال : وكل زمان ..ألم نتزوج نحن عن حب ؟

وسكت لحظات وتابع قلقا : ولكنك تعلمين أن الدكتور داني ابن من ؟ هو ليس ابن صديقي معزول بحق هو يحمل اسمه فقط .

قالت : هما لا يعرفان .

قال محتدا : أنا لا أحب زواجها منه .. فهذا فعل يعقوب .

قالت بثقة : وأنا قلت مثل ذلك لنفسي .

قال : أنا أرفض هذا الزواج يا نهى ! هذا انتقام من يعقوب .. ما زال اللعين يرغب فيك .

قالت : أنت تعرف أنني رفضته يا عامر ! وقبلتك أنت .

قال : أعرف أعرف .. أيام عشناها سوية ؛ لكنه كلما نلتقي يذكرني بأني سرقتك منه .

قالت صارخة : كذاب ! كنت أمامه قبل أن أعرفك .. أنت لم تسرقني منه ، ولم تخطفني .. قلت له عليك أن تنسى يا يعقوب تلك الأيام السوداء القذرة .. أنا اليوم زوجة صالحة ، عندما جئت بيروت هاربة من البلدة .. كان عليّ أن أقبل بالعمل معه ومع زبائنه .. ماذا يفعل المرء مع الفقر والشقاء والرعب ؟! وخاصة فتاة سقطت في الرذيلة يا عامر ! لولاك لظللت فتاة دعارة ؛ وربما مت قديما .

قال متذكرا قصتها : نعم ، أذكر بؤسك ودموعك والغدر الذي أصابك في بلدتك من سيدها ووحشها .. وكيف غدر المجرم بك ؟ حتى طلب منك أبوك الهرب إلى بيروت .. وتعرفت على يعقوب ، واستغلك للعمل في المرقص أو الحانة ، وقدمت نفسك لزبائنه حتى التقيت بك أثناء الدراسة ، وأعجبت بك ، وعشنا معا أياما سعيدة ، ولما ماتت زوجتي قبلت بالزواج مني رغم رفض يعقوب الشيطان ، وعاهدتنني على الابتعاد عن الرذيلة إذا تزوجنا .

فقالت : ولقد وفيت لك بالعهد يا عامر ! وما زلت رغم وعود يعقوب بالزواج مني نكاية بك .. وقد ولدت لك خمسة مواليد ، قتل ثلاثة في غارة على مدرسة من قبل اليهود ، وظلت نورا وجاد .

قال بحيرة : نعم ، واليوم نورا ترغب بالزواج من ابن صديقتك فاتن عشيقة ذلك الموظف في السفارة الذي يظن أن السيد معزولا والده .

قالت : أنت تعرف تفاصيل تلك القصة .. هل حقا مات هذا الرجل يا عامر كما شاع ؟!

قال : أنا لم أقل لك إنه مات ؛ إنما اختفى .. واعتقد الجميع أنه قتل .. أنا لم أره ميتا .. ولا أعرف أين اختفى ؟!

قالت : وتزوج يعقوب الأرملة بأمر من موظف السفارة .

قال : أنت لا تعرفينه !

قالت مدافعة : لا ، لا ، يا سيد عامر ! ولا حتى فاتن تعرف من هو ؟ هو سلم ليعقوب القواد

المهمة ..كان يذهب بنا إلى البيت المستأجر نسكر سوية ويمارس معنا البغاء .. وينصرف الجميع وكان يعقوب يدفع لنا بكرم ، ولما حملت فاتن كان لابد لها من زوج ، وكان معزول هو الزوج وقد وافق على الزواج ؛ ليكون الأب لداني أمام القانون ، فقد قبض مالا كثيرا مقابل ذلك .. ولما تعرفت عليك أثناء دراستك وقبلت حبك لم أذهب لشقة يعقوب كما فعلت فاتن ، ثم ماتت زوجتك وتزوجنا ، ولم أخنك أبدا .

قال : صدقت ، وكيف سنمنع هذا الزواج ؟

قالت : أنا بينت رفضي لابنتي .

قال : وأنا سأرفض مثلك .

قالت : تهددني بالهرب معه يا عامر !

كان جابر يقول لأبيه وزوجته أم نورا : أنا لن أسمح بزواجهما .

قال عامر : وأنا وأمها لا نرغب بذلك يا جابر !

قال جابر : أنا أعرف سبب رفضك ، ولا يهمني سبب رفض أم نورا .

قالت أم نورا ببرود : رغم أنها بكري يا جابر .. وأنا أعلم أن والدك عامر كشف لك سر ولادة داني ؛ فأنا لا أحب لها الزواج منه .. وعليك أن تصدق هذا .. وعليك بالحكمة وحسن التصرف .. فيعقوب رجل شرير .. وكما قال والدك يرغب بالانتقام منا وبالذات مني لأسباب ربما حدثك عنها أبوك .

قال عامر : لم أحدثه بكل أسرارنا يا نهى .. فهي لا تهمه .. ولا أرغب بالحديث عنها .

قال جابر : تحدث عنها يعقوب يا سيدة نهى ! وكلنا يخطئ ، ثم ينصلح .. هل يعيش أحد في بيروت ولا ينحرف ؟ إذا كان مستعدا لذلك ؛ لكن الزواج شيء آخر .. أنا نصحت يعقوب وربيبه بالحذر من غضبنا .. فسخرا مني وقال يعقوب : رأس مالك طلقة طائشة !

قال عامر بانزعاج بين : هذا لعين يا جابر !

قال جابر : لن ترحمه فاتن .. نعم ، قد يستغل هذه الحرب الأهلية للغدر ؛ لكنه لن ينجو من

نارها كما يتوهم .. أين اختفى معزول ؟

قالت : هل يعلم داني شيئا عن أبيه ؟

رد عامر قائلا : بالتفصيل لا أعتقد .. فوالده الحقيقي كما تعلمون ليس معزولا .. ولا أعتقد أن يقول يعقوب له ذلك .. المشكلة أنه لا يصدق مثلنا بوفاة معزول .

قالت : هل حدثته أمه عنه ؟

قال : يقول يعقوب إنه يعرف باختفاء أبيه معزول ، وإنه لم يقتل كما يشاع .

قالت لجابر : أنت ما علاقتك بيعقوب ؟

قال : القضايا يا سيدتي ، ثم زعم لي بصداقته لأبي ولك .

قالت : شيطان !.. أختك تهدد بالهرب معه .

قال باسما : حذرتها ..وهي تسخر مني ، وقالت : حين أنتهي من الجامعة يحلها ألف حلال .

قالت : لا أعتقد أنها ستصبر يا جابر ! وإلا صمتت عن الحديث عن الزواج .. تحدثت لتقول لنا رغبت بموافقتكم ورضاكم فرفضتم .. وأنا بالغة راشدة حرة التصرف والاختيار .

قال جابر: أتظنين أنها عذراء ؟

ضحكت وقالت بتهكم : وهل تظن أحدا في بيروت يفكر بالعفة يا جابر ؟!

قال جابر: صدقت ! بيروت غير المدن .. الاستعمار والحروب والاغتصاب لا تدع أحد يهتم بذلك . سكت قليلا وتابع لما رأى صمتهم : سوق الدعارة والبغاء في قلب العاصمة ، وهو سوق رائج مع عشرات ومئات الجواسيس والمنظمات .. وأنت يا أبي !

قال : وأنا مثلكم ، لا أظن عذراء تعيش في شوارعنا .. عشرات الحانات والمراقص والخمارات والعصابات .. إلا المتدينات وبنات الحركات الدينية.

قالت : ربما تجد ذلك الشرف عند أهل الدين والجماعات المتدينة وفي الأرياف والقرى.. كما قال والدك ـ ربما !

داني ونورا

داني معزول ونورا عامر تناولا طعاما في مطعما راقيا في أحد المطاعم الشهيرة ببيروت في فترة السبعينيات ، ولما انتهيا منه أخذا يرشفان القهوة ، وقال الدكتور الطبيب داني بحيرة : لماذا يرفض والداك زواجنا ؟! فعلا لماذا ؟فهما يعلمان بقصة حبنا ورغبتنا بالحياة كزوجين.

قالت بدون مبالاة : صدق يا داني أنني فعلا لا أدري ! كنت أظن أنني عندما أعلن ذلك سيعلنان فرحهما وترحيبهما ! فوالدك كما نعلم ونسمع كان صديق أبي وأمي أيام الجامعة الأمريكية وبعد الجامعة حيث عملا معا في التدريس .

قال وبغضب : والذي يغيظني ويغضبني أكثر رفض أخيك جابر اللعين .. ولا أعلم سبب كرهه لي ، وليس بيني وبينه صداقة .

قالت بتذمر : نحن أسرة معقدة .. لا تفكر ولا تهتم بأحد منهم .. سنتزوج شاءوا أم أبوا .. سنتزوج رسميا وقانونيا .

قال: أنا أرغب بك زوجة حقيقة يا نورا ؛ ولكنني خائف من العواقب .

قالت: ولماذا أنت خائف ؟

ـ الموت مخيف !

قالت : كلنا سيموت.. ها أنت ترى الانفجارات والاشتباكات تحدث فجأة ودون سابق إنذار ويقتل من يقتل ؛ كأنه فرخة .. أليس نهاية كل حب الزواج ؟ .. يجب أن نتزوج .. أنا لا أقبل أن أظل مجرد عشيقة يا داني ! تحلو في وجهك طبيبة ، ممرضة ، مريضة عالجتها أعتذر إليك نورا

ـ هذا فعل مسلسلات وأفلام سينما مصرية .. ولا أنا أقبل ذلك ! من حقك أن نتزوج شرعا وقانونا .. ويعقوب زوج أمي يرى ذلك ويرحب به .. وأمي تريد ذلك ؛ إنما أسرتك هي التي عقدت الموضوع .. ألا تخشين على حياتي ؟

قالت : كيف لا أخشى على حياتك ؟ بل أخاف على حياتك أكثر من حياتي ، وتهمني حياتك أكثر من حياتي ..وأنت تعلم هذا .. كنت أظن فعلا رغبة لدى أمي بزواجي منك .. وأن المدعو

أبي سيوافق فور أن أعلن ذلك ؛ ولكن حادث أبي يبدو أنه خربط دماغه وأعصابه ومقتل إخواني كذلك .. والغريب حقا موقف المحامي اللعين .. هذا الذي لا أفهمه ! فهو يكره أمي كرها لا أفهمه ، وأراه يتحدث معها باحتقار واستعلاء ، أو كأنه يتحدث مع حيوان حتى بدأت أفكر بغموض حياة أبي وقصة علاقته بوالدك الميت .

قال بضيق: والدي الميت لم يعثر على جثته ؛ كما يقول يعقوب ، فيعقوب يزعم أنه مات في عملية فدائية داخل فلسطين كما كان يحب ويسعى ، وأن إسرائيل أخفت جثته في قبر مجهول ، ولما ظهر ذلك وانتشر تزوج يعقوب أمي الأرملة .. أنا أفكر بالهجرة إلى أمريكا أو أوروبا .

قالت بقلق : لا أحب أن تغدر بي يا داني وتهرب مني !

قال : يستطيع يعقوب إرسالنا للأرجنتين، يقول إن له أصدقاء فيها.. الحب ملعون يا نورا !

قالت : ملعون ملعون .. المهم أن يتحقق زواجنا ، وأن أعيش معك.. وأخرج من البيت ، لم أعد أطيق رؤية أبي عامر !

قال وهو يعود لموضوع الزواج : ألا تعرفين يا نورا سبب رفضهم لي كزوج شرعي ؟!

قالت بغضب مكبوت : أمي لا تعرف سر رفضهم لك مع أنهم لا يهمهم علاقتنا الخاصة وحياتنا الخاصة ويعلمون عمقها .

قال بتفكر: والدك عجيب أمره !.. كنت أظن صدقا أنه سيفرح بإعلان زواجي من ابنته كما تقول أمي وزوجها يعقوب .

قالت: أمك أليس عندها علم وتفسير ؟! فهي صديقة نهى قبل زواج أبي منها منذ التقتا هنا .

قال : أبي أيضا كما تعلمين كان صديقا لأبيك وأمك ، وكان مدرسا مع أبيك؛ بل كلاهما جاء من مدينة صفد للدراسة حيث تدرسين في الجامعة الأمريكية ، وكانا من أتباع حركة القوميين العرب التي نشأت مع نكبة الفلسطينيين سنة ٤٨ ، ومعجبون بجورج ووديع ابن صفد ، ثم اختفى أبي كما قيل لنا بعملية فدائية داخل فلسطين عام ٥٦ عندما تعرضت مصر للعدوان الثلاثي أو أزمة السويس ، وقد ذهب لغزة للعمل مع الفدائيين والمصريين ، ولما ظهرت الثورة

الفلسطينية في ٦٥ انضم والدك لفتح والثوار ، وبعد هزيمة العرب عام ٦٧ أمام الجيش الصهيوني ذهب أبوك للأغوار في الأردن ، وبعد الكرامة رجع لعمله في الأونروا ، وبعد تعرض والدك للموت بحادث تفجير غامض اعتزل الثورة والتدريس .. فهذه قصة أبيك وأبي كما سمعتها من زوج أمي يعقوب .

قالت بتشكك: يوجد بعض الغموض في حياة أبي عامر ، وهذه التفاصيل لا تهمني يا داني .. أنا كان همي الوحيد دراسة الطب ، وكان ذلك على يد يعقوب كصديق للعائلة ، ثم تعرفنا على بعض وقبلت بك صديقا ومحبا يا داني ، ولم تعترض الأسرة على صداقتنا ، فرأيت أنهم يرغبون بزواجنا ، ولما حدثت أمي برغبتنا الزواج امتعضت واستأت ، ونصحتني بعدم التورط بالزواج قبل إنهاء الجامعة .

قال حالما : وأنا ما زلت انتظر .

قالت بحسم : لم تعد فائدة للانتظار يا داني ! متى ستحسم أمرك ؟

قال : والجامعة !

قالت : الكثير من الطلبة يتزوجون وهم يدرسون .. ويعقوب لا أعتقد أنه يرفض زواجنا أليس كذلك ؟!

قال : هو يحب زواجنا ؛ لذلك رغبني بالتقرب منك قبل تخرجي من سنتين . .وهو يحب ذلك .

عامر والدراسة

صفد مدينة مهمة في الحركة الوطنية والنضال الشعبي في فترة الانتداب ، وكان فؤاد حجازي شهيد هبة البراق ١٩٢٩ أحد أبناء تلك المدينة الكائنة في الشمال الفلسطيني، أحد الثلاثة الذين أعدمهم الإنجليز في حزيران ١٩٣٠ بتهمة أحداث البراق .

وفي صفد تشكل أول فصيل فلسطيني مسلح في منطقة الجليل عام ١٩٣٠ فصيل "جماعة الكف الأحمر" برئاسة القائد أحمد طافش ، وفي ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ كانت صفد ومنطقتها معقلاً مهماً من معاقل الثورة الفلسطينية، ونشطت فصائل منطقة الجليل بقيادة أبي إبراهيم الكبير " خليل العيسى " ، وقد بلغ عدد ثوار هذه الفصائل بضع مئات من أبناء مدينة صفد وقراها ، كان عدد سكان المدينة عام ١٩٤٧ قرابة ١٣٥٠٠ نسمة ، منهم ٢٦٠٠ يهودي.

صفد مدينة مختلطة عبارة عن أحياء وطوائف مثل القدس والناصرة ، وهي عبارة عن سبع حارات، خمس منها يسكنها المسلمون وفيها أكثر من مسجد كالجامع الأحمر ، وجامع السوق وجامع الشعرة الشريفة ، وحي للنصارى ، وآخر لليهود كمدينة بيت المقدس ، لم تكن الأحياء منفصلة بل عبارة عن تواصل معماري واجتماعي وتقارب ، خصوصاً مع المسيحيين من دون تمييز، لكن دون مصاهرة ، أما اليهود فكانوا يعملون أيضاً في الأرض، حيث كان الاختلاط سائداً فيها بين المسيحيين والمسلمين، أما اليهود فكانت لهم مدارسهم الخاصة بالطائفة .

أنهى عامر المرحلة الثانوية سنة ٤٦ ، وكان السفر لبيروت لدراسة اللغة الإنجليزية في جامعة بيروت الأمريكية ، لم يكن للفلسطينيين جامعة في فلسطين زمن الانتداب ، كان عامر ترتيبه الثاني بين ذكور السيد حمدان التاجر في سوق صفد ، فشقيقه حازم الأكبر منه بسنة تعلم بضع سنوات ، ثم اشتغل نجارا ، ولما تقرر سفر عامر أصرت العائلة على زواجه قبل السفر خشية انحرافه في بيروت التي تبعد عن صفد تسعين كيلو متر تقريبا ، كانت بيروت العاصمة معروفة بكثرة الملاهي والخمارات لكثرة النصارى والطوائف فيها كما هو معروف ، وكانت كأنها مدينة أوروبية في التقدم والمدنية ، وعادة مثل هذه المدن بسبب الحرب الكونية والاستعمار الفرنسي

مرتعا للجنود والضباط للرفاهية ، وقضاء الشهوات خلال الحرب ، فكنت ترى أن البغاء ينتشر فيها بدون عوائق كالقاهرة خلال الحرب الثانية ، تجد فيها شوارع مخصصة للمتعة واللذة والترفيه ، فترى فيها المومسات وبنات الهوى من جنسيات مختلفة عربية وأوروبية .. قدمن إليها للترفيه عن العساكر الغربيين وجند المارينز عام ١٩٥٨ .

تزوج عامر حمدان ابنة خالته ، ولما حان موعد بداية العام الجامعي سافر برفقة قافلة ، واستقر في برج البراجنة حي في جنوب بيروت قرب مطار بيروت الدولي ؛ حيث يبعد أقل من اثنين كيلو متر عن المطار ، كان قد سبقه الكثير من أبناء البلد أبناء الأغنياء والتجار في مدينة صفد ذات الخليط من الطوائف ومثلها بيروت .

وكان عامر قد تعرف على شاب صفدي من أبناء المدينة يسبقه بعام اسمه معزول عدلي ، ويدرس مثله في الجامعة الأمريكية التاريخية ، كان سجل لدراسة ليسانس اللغة الإنجليزية ، أصبحا صديقين فور أن استقر عامر في المدينة .

وخلال زمن يسير أصبح عامر رفيق معزول في السكن ، وفي ارتياد مراقص اللهو ، وحانات بيروت ، لم يكونا متدينين كأغلب أبناء التجار خاصة في مدينة مختلطة كصفد رغم وجود المساجد والتدين الغالب على الشعب الفلسطيني ؛ لكن الانتداب البريطاني كان يسهل الانحراف والبارات ودور السينما في المدن الكبيرة في فلسطين .

والصراع الفكري والأحزاب الموجودة في فلسطين موجود مثلها في بيروت خاصة انتشار الفكر القومي والشيوعي ، وأشهره حزب القومي السوري حزب أنطون سعادة ، وحزب الكتائب حزب بيار الجميل الذي تأسس عام ٣٦ بعد الحزب القومي السوري .

لم ينخرط الشابان بأي حزب تلك السنوات الأولى من حياتهما الجامعية ، كان هدفهما الجامعة والعودة للعمل كمدرسين في فلسطين أو في الإدارة الإنجليزية بسبب حصولهما على شهادة اللغة الإنجليزية ؛ إنما انخراطا في اللهو والشراب والنساء ؛ حيث الانفلات سهل ومتيسر ، ولا رقابة أسرية ومجتمعية ، كان معزول يتردد على عدد من دور الخمر ، وتعرف على ساقية اسمها فاتن

فتاة هاربة من إحدى القرى بسبب سقوطها في قضايا جنسية وفاحشة ، فتخلى عنها أهلها وطردوها من قريتهم ، فجاءت بيروت واشتغلت في حاناتها ، وباعت جسدها لمن يدفع ، ولأهل الشهوة والفاحشة ، وهي أسهل مهنة للماجنات ولا تحتاج لدراسة وشهادة ، ثم التقت بفتاة شبيهة قصتها بقصتها اسمها نهى ، فكان معزول كلما توفر له مزيدا من المال يرافقهما لبيتهما ويمارس الدعارة معهما ، فلما حضر عامر بيروت بعده بعام ، ووجد أنه على شاكلته عرفه عليهما .
وكان عامر الطالب قد عشق نهى خالد عشقا حقيقيا كما قال ، وهي أحبته كما زعمت بصدق وتمنت الزواج منه ، وكان لفاتن صديق قواد اسمه يعقوب يوفر لهما بعض الزبائن من علية القوم من ضباط السفارات أو موظفي السفارات وربما السفراء ، وغير ذلك مقابل ما يكسبه من العمولة من الطرفين ، ولما يحتاجهن معا أو لخدمات إحداهن يزور خمارتها ويأخذهما لشقة خاصة لموظف السفارة الكبير ، وكان الرجل العاهر معجبا بفاتن أكثر من نهى وتحلو في عينه أكثر ، وكان الرجل يقدم لهما المال والهدايا مقابل المتع التي يتحصل عليها منهما .
لم يكن معزول ولا عامر يقدر على منعهما من ممارسة البغاء وعملهما الدنيء، فهن من بنات الهوى لا أهل لهن في المدينة ، وليس في هذا الأمر شيء مهم وخطير في مدينة منفتحة على الفساد كبيروت في تلك الفترة من الزمن .
مضت سنة على عامر في لبنان ، ولما عاد لفلسطين سنة ٤٧ وجد زوجته قد وضعت له طفلا سمي جابرا ، وكان يعرف ذلك بواسطة الهاتف والرسائل وفرح به ، ولمس الخطر الواضح في فلسطين ، وسمع همسات تتردد عن رغبة الإنجليز بإنهاء الانتداب والخروج من فلسطين ، وأن الأحلام بالعمل مع الإدارة الإنجليزية على وشك الانتهاء ، وكانت إشاعات كبيرة تتكلم عن تقسيم فلسطين بين العرب واليهود لتخفيف التوتر والاضطرابات والاغتيالات بين الفريقين .
ترك صفدا بعد انتهاء العطلة ، وكالعام الماضي ترك زوجته في حالة حمل وعاد للجامعة ، ووجد صديقه معزولا في انتظاره ، ثم عادا لعادتهما من السكر والزنا .
وكانت مفاجأة في وجه معزول ـ وهي أن الغانية فاتن في حالة حمل ـ وأن يعقوب يعرض عليه

الزواج منها مقابل بعض المال ، ولما تنته الجامعة يطلقها ويعود لقريته وبلدته ، ولما تشاور مع عامر شجعه عامر على ذلك الزواج المؤقت ، وشبهه بزواج المتعة عند الطائفة الأمامية، وزعم له لو أنه لم يكن متزوجا لفعل ذلك ، وفي النهاية قبل معزول العرض والمال ، وأصبح أمام الناس زوجا لتلك الغانية ، وسكن بشقة أمنها القواد يعقوب لهما .

وفي شهر تشرين الثاني عام ١٩٤٧ صدر قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، وحددت مناطق كل طرف ، وتبقى القدس تحت رعاية الأمم المتحدة ، ورفض العرب قاطبة قرار التقسيم واستعدت بريطانيا للانسحاب من فلسطين بعد انتداب امتد لثلاثين سنة ، وتشكل الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني المعروف للشعب الفلسطيني .. وفي مطلع ٤٨ ظهر ما سمي بجيش الإنقاذ التابع لجامعة الدول العربية .

أما في صفد فبدأت المناوشات في ١٢ من كانون الأول ١٩٤٧ بعدما قتل شاب يهودي في سوق صفد الكبير على أثر اتهامه بمحاولة تفجير نفسه بين الجموع ، وقد رد اليهود على ذلك بسلسلة من أعمال القنص أدت إلى استشهاد شابين من العرب ، في الخامس والعشرين من الشهر ذاته جرت المحاولة العربية للاستيلاء على القلعة، إذ جرت حولها معركة حامية سقط فيها بعض القتلى من الجانبين، ولم يكتب للمقاتلين العرب السيطرة على القلعة بسبب تدخل القوات البريطانية التي لم تغادر يومها القلعة بعد.

حضر إلى المدينة الضابط السوري إحسان ألماز ، قام هذا الضابط بتنظيم المقاتلين العرب ، وعمل على تدريبهم وتحضيرهم للمواجهات ، ووضع خطة محكمة لمحاصرة الحي اليهودي، ومنع قدوم المؤن والذخيرة إليه .

واضطر اليهود بسبب ذلك الحصار لتشغيل بعض القوافل من السيارات المصفحة بغرض الوصول للحي اليهودي ونجدته ، كما وحاولوا كسر الحصار من خلال مهاجمة واحتلال بعض القرى العربية المشرفة على طريق جبل كنعان المؤدية لصفد .

في الخامس عشر من نيسان قامت قوات المتطوعين العرب من دخول نقطة البوليس البريطاني

ومبنى الحاج فؤاد الخولي، الواقع على الحدود المتاخمة بين الحي اليهودي والأحياء العربية، والذي كان البريطانيون قد صادروه بعد بدء المناوشات للفصل بن الأحياء العربية والحي اليهودي ، حاولت القوات اليهودية السيطرة على هذين المبنيين في هجوم معاكس في الثامن عشر من نيسان، ولكن القوات العربية المتحصنة فيهما نجحت في صد الهجوم والسيطرة على بعض المواقع اليهودية الأمامية، في اليوم ذاته وصلت طلائع وحدة أردنية تابعة لجيش الإنقاذ يقودها الضابطان أميل الجمعان وساري فنيش ، وفي اليوم التالي وصلت سرية متطوعين سورية قوامها ٨٠ مقاتلاً بقيادة عبد الحميد السراج وهشام العظم، لم يكن قدوم هذه النجدات بادرة خير على المجهود الحربي العربي ومعنويات الأهلين، إذ أنه سرعان ما تصادم الضابطان الأردنيان، اللذان عملا على التهدئة، وفرضا منع التجوال على السكان، مع الضابطين السوريين وقائد قوات المتطوعين إحسان ألماز الذي رأى بوجوب القيام بمبادرات هجومية لضرب معنويات الحي اليهودي من جهة، ورفع معنويات أهالي صفد من جهة أخرى، وقد أدى هذا النزاع إلى انقسام أهل المدينة بين مؤيد لهذا أو ذاك من الضباط، ولم يكن بد من استبعاد إحسان ألماز خاصة بعد قدوم سرية أخرى من جيش الإنقاذ تحت قيادة الجنرال أديب الشيشكلي ، وتوليه القيادة العليا بنفسه .

في مطلع أيار كان اليهود قد سيطروا على قريتي عين الزيتون وبيريا وقد نجحوا بذلك بكسر الحصار العربي عن الحي اليهودي في صفد ، وتحويل الوضع إلى وضع معاكس، بحيث أصبحت الأحياء العربية هناك تحت الحصار ، وفي ظل هذه الظروف كان أمر سقوط صفد هو مسألة وقت ليس إلا خاصة إزاء الإصرار اليهودي على ذلك ، وذلك تمهيداً لبسط السيطرة اليهودية على الجليل الأعلى بكامله .

وعن أهمية كسر شوكة أهل صفد من العرب كمقدمة للسيطرة على الجليل الأعلى، قال يجئال ألون، قائد قوات "البالماخ" التي تولت مهاجمة المدينة، في توجيهاته للقوات المهاجمة: " إن عرب صفد هم العامل الأقوى في منطقة الجليل الأعلى، وعليه فإن احتلال صفد ، سيخفف إلى

حد كبير، من صعوبة احتلال أماكن أخرى في الجليل الأعلى وإصبع الجليل". وبغرض تجميع القوات اللازمة لهذه العملية قامت القيادة اليهودية بوضع لواء ألون ١١ من قوات "جولاني" ولواءين من قوات "البالماخ" تحت تصرف يجئال ألون الذي أخذ يتحين الفرص للانقضاض على الأحياء العربية من مدينة صفد واحتلالها .

في اليوم السابع من أيار قام أديب الشيشكلي بوضع خطة لمهاجمة الحي اليهودي وكسر الحصار، حيث بدأت بطارية المدافع التابعة لجيش الإنقاذ والمرابطة برأس التينة ووادي الطواحين بقصف الحي اليهودي تمهيداً لاقتحامه ، وعلى أثر ذلك قامت القوات اليهودية بشن هجوم مضاد في الثامن من الشهر ذاته، نجح المدافعون العرب بصده بشق الأنفس ، لكن القوات اليهودية أعادت الكرة في هجوم شامل حمل اسم "عملية يفتاح" بدأ في العاشر من أيار واستمر في الحادي عشر منه .. وفي نهايته نجحت القوات اليهودية ببسط سيطرتها على المدينة العربية بعد أن أخلتها سرايا جيش الإنقاذ في اليوم الأول للهجوم ، ولم يبق في المدينة إلا عشرات من المقاتلين المحليين، وبعض المتطوعين العرب الذين تحصنوا في مبنى القلعة وقاتلوا حتى النفس الأخير . ودخلت القوات اليهودية صفد بعد أن تم تهجير أهلها تحت وقع القتال المرير الذي دار هناك استشهد في عملية الدفاع عن صفد قرابة ١٠٠ شهيد وجرح العشرات، وقد تم أسر بعض الشباب ووضعهم في المعتقلات حتى تم إطلاق سراحهم بعد التوقيع على اتفاقيات الهدنة.

ومن أسباب الهزيمة كما كتب المؤرخون قيام قيادة جيش الإنقاذ ببث الرعب وتحطيم الروح المعنوية والدعوة لنزوح أهل المدينة والتبشير المضلل بالجيوش العربية القادمة التي ستحرر فلسطين ، ومنها الأخبار المبالغ فيها حول المجازر اليهودية في المناطق التي تحتلها القوات اليهودية، ومنها فشل اللجنة القومية ووجهاء صفد وأثريائها بالتخطيط للمعركة التي كان من المعلوم أنها قادمة ، وكان عليهم إرسال العديد من شباب صفد للتدريب على السلاح والقتال على الأراضي السورية ، وأن يشتروا السلاح والذخائر وإعدادها على الحدود السورية لإدخالها مع أولئك المدربين فور انسحاب القوات البريطانية ، ومن أسباب الاندحار السريع فشل

وجهاء صفد بالتخطيط لما بعد الهزيمة العسكرية ، كان عليهم أن يكونوا قدوة لسواهم بالبقاء هم وذويهم والسعي لإقناع الأهالي ببقاء كل منهم في بيته، وأن يوضحوا أن القوات المهاجمة تنشغل بالقوات المقاتلة ونادرا ما تتعرض للمدنيين المسالمين ، وكان من الأجدى حفاظا على عروبة المدينة البقاء والتفاوض مع زعماء اليهود ، عند انسحاب جيش الإنقاذ ، بهدف التسليم بدون قتال وهو ما تكرر حدوثه عبر التاريخ عندما يتبين أنه لا جدوى من القتال .



أحد المهاجرين

قال أحد المهاجرين واللاجئين : "بقينا نعيش حياة آمنة حتى العام ١٩٣٦ ، وعلمت بأن والدي ثائر ، ويجتمع مع الثوار في مغاور وأمكنة سرية حتى قبيل عمله في سلك البوليس ، في العام ١٩٣٦ بدأ الثوار يتقاتلون مع الإنكليز ، قرب صفد كجبل الجرمق ، وكان الثائر عبدالله الأصبح يتزعم الثورة في صفد ، وكذلك عبدالله الشاعر الذي كان معروفاً في ثورة عز الدين القسام. وتابع فقال : كما أذكر في هذه المرحلة ٤٨ ، أنه جاء إلى صفد ساري بك جميعان من الأردن من قبل الأمير عبدالله ممثلاً لـ"جيش الإنقاذ" ليتسلم موقع صفد قبل خروج الجيش البريطاني ، وبعد عشرة أيام سقطت صفد بيد منظمة الهاغانا".

" لم يكن السلاح في أيدي جميع الفلسطينيين، فعمد تجار فلسطينيون إلى شراء بنادق نصف أوتوماتيكية "برن" ورشاشات "ستن" من الزعيم سلطان الأطرش في سورية، وكان يصل سعر البندقية إلى مئة ليرة فلسطينية لذا كانت حكراً على المقتدر ، كان والدي يملك بندقية وكذلك عمه وابن عمه ، كان يهود الهاغانا يتجولون في الجبال الوعرة ليلاً، لم يكن يتعاطى معهم أحد ، كان لباسهم عادياً ومن طيبة قلوب الناس، لم يكن أحد يعتقد بأنهم سيرتكبون فظائع ومذابح في فلسطين، بقينا في صفد ،وتركناها إسوة بغيرها بعد مجزرة عين زيتون وصفصاف العام ٤٨ ، حيث اختار اليهود أربعين شاباً من خيرة شباب صفد ، وقتلوهم ذبحاً عند طلوع الشمس، وهو توقيت معظم مذابحهم "

قال المهاجر : "دفعت المجزرة العائلات في صفد إلى مغادرتها ، اعتقدنا بأننا سنغيب أياماً ونعود لذا تركنا كل شيء على حاله ، حملنا المال والذهب والأولاد والنساء وفراشاً على البغال، أقفلنا الباب ، واحتفظنا بمفتاحه وبحجج الأرض وشهادات الولادة ، توجهنا إلى "عين السمورة" في جبل الجرمق، بنينا فيها عرشاً خيمة من خروب وسنديان، وبقينا تسعة أشهر ، كنا نتسلل إلى بستاننا في وادي الليمون ، ونسرق منه الفواكه لأهلنا، أما حاجياتنا اليومية فكنا نشتريها من قرية "السموعية" التي يسكنها مسلمون ، ولم يكن اليهود قد وصلوا إليها بعد ، وكانت خارج

حدود التقسيم الأول لفلسطين الذي طال حدود طبريا في تلك المرحلة ، واجتاحها اليهود في ما بعد ، ثم حصلت معارك فاضطررنا إلى مغادرة عين السمورة " عانينا الكثير على مدى تسعة أشهر، ذل وبرد وشتاء ولا بيت يحمينا ، وتوجهت مع النساء إلى سعسع، لم نكن وحدنا، كنا نمضي في صف طويل وقبلنا آلاف الراحلين، إلى أن وصلنا إلى الحدود اللبنانية كما طلب والدي ودخلنا إلى قرية رميش في قضاء بنت جبيل، كانت المرة الأولى التي أزور فيها لبنان ، لحق بنا الأهل في ما بعد ، لكننا بدل العودة إلى صفد انتقلنا إلى الرشيدية حيث نصبنا الخيم ."

بعد إعلان التقسيم المشهور تحركت الأحداث سريعا ، الإنجليز يستعدون للانسحاب ، إسرائيل تستعد لإعلان الاستقلال بزعمهم والحرب ، والفلسطينيون تائهون وضائعون بين الوعود والعهود ، وبدا التهجير والتطهير ليقال أن فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض .

بدأ الشتات الفلسطيني يزداد ، رحل أهل الجليل نحو الشمال ، والساحل نحو الضفة الغربية وغزة ، وبعضهم اجتاز نهر الأردن .

كان عامر في غاية الذهول والصدمة رغم وجوده ببيروت ، ومثله الكثير من الطلبة أبناء الأثرياء والتجار والعائلات الكبيرة ، كان الشاب في انتظار الأهل بدل العودة لصفد حيث مسقط رأسه ومثله معزول ، الذي كان يقول له بخوف وانزعاج : وماذا سأفعل بهذه المدعوة امرأتي .. سيفتضح الأمر أمام القريب والبعيد .

قال : هل أطلعت يعقوب على الأمر والأحداث ؟

قال بهز الرأس : قال ازعم لهم أنك أحببتها وتزوجتها .. لقد تورطت ! فكيف سأتخلى عن الزفت الذي ستلده قريبا سوف تجن أمي وحتى أبي ؟!

قال عامر : فعلا إنها ورطة ! والطلاق لا يحل المشكلة.. سيبقى الولد باسمك أمام القانون .. وموظف السفارة اللعين والده الحقيقي ما موقفه ؟!

قال معزول : تقول فاتن إنها لا تدري .. وهي لا تعرف اسمه الحقيقي ومهمته في السفارة ..

إنها زبون عنده .. وإنه يدفع كما أن يعقوب يدفع عني .. وأنت ماذا ستفعل مع نهى ؟
قال مفكرا : نهى بالنسبة لي كغيرها من مومسات بيروت .. سأتركها كما تركت غيرها عندما تصل أم جابر والأهل ، فهم في الطريق كما فهمت من خالي .. وقد أنشئ لهم مخيم بجانب البرج .

يقع مخيم برج البراجنة في الضواحي الجنوبية لبيروت على بعد نحو كيلومترين من مطار بيروت الدولي ، وتحيط به أحياء الرمل العالي وحارة حريك وبعجور وعين السكّة، ويبعد نحو ٩١ كيلومتراً عن فلسطين.

تأسس المخيم سنة ١٩٤٨ من خلال عصبة جمعيات الصليب الأحمر بغية إيواء اللاجئين الفلسطينيين الذين أُخرجوا من بلداتهم وقراهم في الجليل في شمال فلسطين، وتسلمت وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) أمور المخيم سنة ١٩٥٠، كانت مساحة المخيم عند إنشائه نحو كيلومتر مربع واحد ، لكن مع زيادة عدد السكان وتمدد المساكن إلى خارج المخيم، صارت مساحته تقدر حالياً بنحو كيلومترين مربعين.

كانت علاقات تجارية ربطت بين تجار بلدة برج البراجنة وبلدة ترشيحا في الجليل وصفد ، فهاجروا تجاههم "كانت أول خيمة تنصب في المخيم خيمة حسن الخليلي، ثم تبعته حوالي سبع خيم، قبل أن يصل العدد بعد أشهر إلى ثلاثين خيمة."

إذ وصل اللاجئون إلى المخيم في مجموعات متتالية، وأقاموا مساكنهم وفقاً للانتماء القروي ، وحرصت كل قرية على ضم عائلاتها في مساكن متجاورة حتى بدا المخيم وكأنه مجموعة من القرى الفلسطينية الصغيرة ، وبالتالي ظهرت أحياء وحارات سميت بأسماء القرى الفلسطينية التي جاءت منها العائلات ، وهذا شائع في كثير من مخيمات الشتات .

وتتوزع المساكن في المخيم تبعاً لأسبقية الهجرة من فلسطين، فقد سكن أهالي ترشيحا وهم كثر فيه وهم أول الوافدين في خط يمتد من شمالي المخيم حتى جنوبه بمحاذاة الشارع العام الذي يفصل المخيم عن منطقة برج البراجنة ، وتلاهم أهالي الكابري وكويكات والشيخ داود والقرى

الأخرى وذلك في فترات زمنية متقاربة ، ولم يقتصر التضامن على السكن، بل شمل العلاقات الاجتماعية، وكل مجالات الحياة الأخرى الموروثة من فلسطين، والتي حملها السكان معهم إلى المخيم، ومن ضمنها العادات والتقاليد والانقسامات السياسية والنـزاعات الحزبية والتناقضات الاجتماعية.

ويذكر الحاج علي وقد ألف كتابا عن المخيم " أن من أبرز حارات مخيم برج البراجنة: العاملية مستشفى حيفا ؛ جيش التحرير؛ جورة التراشحة؛ الكفاح المسلح ؛ الهيدوس؛ الصاعقة ؛ الوزان؛ كويكات، وغيرها من الحارات ، وللمخيم عدد كبير من المداخل، أبرزها: جواد زين الدين ، التعاونية، العاملية ، المشنوق، الصاعقة، أبو فيصل، الكفاح المسلح"

وقال الحاج علي : في العام ١٩٥٤ دخلت الكهرباء للمرة الأولى خيام اللاجئين الفلسطينيين في مخيم برج البراجنة .

عدد الذين اضطروا للمغادرة إلى لبنان بعد نكبة فلسطين تراوح بين ١٠٠ و١٣٠ ألف لاجئ ، قدم معظمهم قبل إعلان قيام دولة إسرائيل ، وجاء ٦٠٪ منهم من منطقة الجليل ، و ٢٨٪ من حيفا و١١٪ من مناطق يافا واللد والرملة ، وأقلية بلغت ١،٤٣% من القدس وجوارها، انتشر المهاجرون في مخيمات أنشئت في لبنان وسوريا وغزة والأردن.

وزحف السيد حمدان وعائلته نحو بيروت وبرج البراجنة ؛ والسبب أن أصهاره من بلدة ترشيحا التابعة لعكا في الجليل ، وهي غرب صفد ، وتبعد عنها ما يقارب العشرين كيلو متر ، وأن أصهاره أخوال أولاده من تلك القرية ، وقد سبقوهم في الرحيل والخروج لتلك المدينة ، وإلى ذلك المخيم ، واستقبل عامر الأسرة الجريحة والأقارب بحزن عميق وتعاطف وألم ، وتفاجأ بولادة زوجته أثناء الطريق والزحف وبوفاة الطفلة التي كانت في رحمها ، فحزن على فقدها كما يحزن الآباء ؛ ولكن مأساة الرحيل والتشرد لم تدع له مجالا للحزن الكثير ، وقد قيل اذا عم البلاء خف ، وكانت زوجته تعاني من حمى النفاس والوهن ، فقبل نهاية العام ٤٨ كانت تفارق الحياة ودفنت في إحدى مقابر بيروت .

وقبل أن تنتهي السنة الثالثة في الكلية تزوج من فتاته نهى خالد أمام دهشة أقاربه ؛ ولكنهم تقبلوا الأمر على مضض ، وهو لم يحدثهم بالطبع عن علاقته الخاصة بها ، وانضوى هو ومعزول في حركة القوميين العرب التي ظهرت في بيروت وخاصة الجامعة الأمريكية بعد النكبة ، وكان من أهم شعاراتها استيعاب الصدمة الفلسطينية ، والدعوة إلى الوحدة القومية العربية .



الحرب الأهلية

أصيب معروف سعد زعيم تنظيم ناصري بإطلاق النار عليه أثناء مشاركته في مظاهرة لصيادي السمك في ٢٦ شباط ١٩٧٥ توفي متأثرا بجراحه في ٦ آذار ١٩٧٥ ، بقيت ملابسات الحادث غير واضحة ، وقد شكلت وفاته أحد أبرز العوامل التي ساهمت في شحن الجو والتهيئة لاندلاع الحرب الأهلية اللبنانية.

لقد قام مجهولون بمحاولة اغتيال بيار الجميل رئيس حزب الكتائب في ١٣ آذار ٧٥ ، نجا الجميّل من المحاولة ، ولقى أربعة مصرعهم ، منهم اثنان من الحراس الشخصيين له ، ردت ميليشيات حزب الكتائب على محاولة الاغتيال بالتعرض لحافلة كانت تقل أعضاء من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة (جماعة احمد جبريل الضابط الفلسطيني السوري) إلى مخيم تل الزعتر مروراً بمنطقة عين الرمانة ، أدى الكمين الذي نصبه مقاتلو حزب الكتائب إلى مقتل ٢٧ فلسطينياً ، سميت الحادثة بحادثة البوسطة والتي كانت بمثابة الشرارة لبدء القتال في كل أنحاء البلاد ، بانتشار الخبر سرعان ما اندلعت الاشتباكات بين الميليشيات الفلسطينية والكتائبية في أنحاء المدينة.

عثر في ٦ ديسمبر١٩٧٥ على أربعة جثامين لأعضاء من حزب الكتائب ، فقامت الميليشيات المسيحية بوضع نقاط تفتيش في منطقة مرفأ بيروت ، وقتلت المئات من الفلسطينيين واللبنانيين المسلمين بناء على بطاقات الهوية (التي كانت آنذاك تدون مذهب حاملها) فيما عرف لاحقاً بالسبت الأسود ، أدت عمليات القتل لاندلاع الاشتباكات على نطاق واسع بين المليشيات ، فانقسمت بيروت ولبنان معها، إلى منطقتين عرفتا بالمنطقة الشرقية وأغلبها مسيحيون، والمنطقة الغربية التي كانت مختلطة مع أكثرية إسلامية ، كانت بيروت الشرقية محاطة بمخيمات الفلسطينيين المحصنة مثل منطقة الكرنتينا ومخيم تل الزعتر ، قامت الميليشيات المسيحية في ١٨ يناير ١٩٧٦ باقتحام منطقة الكرنتينا ذات الأغلبية المسلمة والواقعة تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يسكنها أكراد وسوريون وفلسطينيون ، قتلت المليشيات

المسيحية ١٥٠٠ من سكان المنطقة ، ردت الميليشيات الفلسطينية بعدها بيومين باقتحام بلدة الدامور المسيحية، وقتل المئات من السكان المسيحيين هرب الآلاف من السكان بحراً حيث كانت الطرق مقطوعة ، كما تم في هذا اليوم تهجير بلدة دير جنين في قضاء عكار التي وقع فيها عدد من القتلى والجرحى .

جاءت رسالة قصيرة لنهى خالد ، تخبرها ابنتها بأنها تزوجت داني معزول ، ولا يهمها رأي ورفض عائلتها ، وتطلب منهم نسيانها وعدم البحث عنها ، لما قرأ عامر الرسالة لزم الصمت بضع دقائق ثم اتصل بجابر في مكتبه وأخبره برسالة نورا ، فحضر المحامي جابر وقرأ الرسالة فقال له أبوه : أرأيت تزوجت رغما عنا ؟

قال جابر بسخط : سوف تعلم من نحن ؟ دعني أتصرف .

قال : فكر جيدا! .. وتذكر أننا اليوم في حالة حرب يا جابر .

قال بسخط : هم أيضا استغلوا استمرار العنف والصراع الدموي وتزوجوا .

قال أبوه : حياتك أهم كم تعلم من حياتها يا جابر !

غادر جابر بيت والده وعاد لمكتبه ، وحدث شريكته زوجته ووالدها بزواج أخته من الطبيب داني معزول دون قَبول من الأسرة ، ثم اتصل بمكتب يعقوب ، ولما سمعه قال : ألم أقل لك يا يعقوب أن هذه الزواج لا يناسبنا ؟

رد يعقوب : أنا لا دخل لي .. أنا في البداية رأيته مناسبا للصداقة التي جمعتني بأبيك وزوجته وأم داني .

قال جابر: هل تم الزواج ؟

قال يعقوب : سمعت أنه تم بناء على رغبة أختك ، وأنها أصرت على الزواج قبل انتهاء الجامعة .. فقد ملت حياة العشيقة .

قال : حسنا يا سيد ! أريد لقاء داني .

قال : ماذا تريد منه ؟ وأنا لا أستطيع ذكر عنوانها لك.. قابلها في الجامعة

قال جابر: لا أرغب برؤيتها .. أرغب بذكر كلمتين لداني .

قال : أنا أنقلهما له .

قال جابر: متشككا : لا أظنك تستطيع .. فأنت جبان وضعيف وقواد .

قطع الاتصال ، كانت الجامعة مغلقة بسبب أحداث بيروت العنيفة والاشتباكات التي تحدث بين الأطراف المتنازعة في لبنان ، ذات نهار اتصل داني بالمكتب ، ولما أعطي الخط لجابر قال داني : اخبرني يعقوب برغبتك بالحديث معي .

قال جابر: صحيح أنكما تزوجتما !

قال : هي أصرت على الزواج ، وليس لدي مجال للرفض .. ولا أدري لماذا ترفضون زواجنا ؟!

قال جابر: أنا أرغب باللقاء بك لأبين لك سبب رفضنا يا داني .. أين تحب أن نلتقي ؟

قال داني : في نادي "فلور بلو"

قال جابر: جيد الورد الأزرق ! .. الساعة التاسعة ليلا

قال : أنا في انتظارك

ذهب جابر لنادي الورد الأزرق ، وكان داني في انتظاره ومعه رفيق ، فسلم جابر وقال : أهذا حارس ؟

قال : زميل في المهنة يا جابر .. تفضل بالجلوس ماذا تشرب ؟

قال جابر : لا رغبة لي بالشراب .. قهوة لا بأس بها .

حضرت الطلبات والصمت يخيم على المكان، ونفثات لفالف الدخان ترتفع فوق الهامات فقال جابر : أتحب أن أتكلم أمام رفيقك وحارسك ؟

قال الرفيق : سأجلس قريبا منكم .

وجلس على مائدة قريبة يراقبهما ، فقال داني : آ .. لماذا ترفضون زواجنا ؟

قال جابر : أنت تعتقد يا داني أن أباك مقتول .

قال دهشة : أبي!! وما دخل أبي في زواجنا ؟!.. لا أعرف بالضبط مقتول محبوس حي ميت !

قال بحدة : اعلم أن ما تعتقد أنه أبوك ليس ميتا ولا مختفيا إنه حي يرزق يعيش في فلسطين .

قال داني متشككا : يعيش في فلسطين لماذا ؟

قال جابر : لأنه ليس هو أباك ؟

قال مترددا : ومن أبي ؟!

قال بدون شفقة وخجل : أنت ابن زنا يا داني ! غير معروف الأب .. قبل أن تغضب اسأل أمك فاتن وزوجها يعقوب .

قال : والأوراق ؟

قال جابر: القصة عند أمك ويعقوب .. ومن أجل هذا كنا لا نرغب بزواجك من نورا ..أنت والدك موظف أحد السفارات ؛ لعل يعقوب يعرفه ، فهو القواد والعاهر يا داني ؟

قال : أنا أعرف أبي !

قال : أبوك في الورق ، أما أبوك الحقيقي فأمك لا تعرفه .

قال : وأما أنت فتعرفه !

ـ أنا لا أعرفه يا داني ! لكني أعلم أن أم زوجتك كانت وأمك عشيقتان له .. يعقوب الذي يعرفه فحسب ؛ ولكن أمك تعلم أن معزولا ليس أباك .. فمن أجل هذا كنا لا نحب لك الزواج من العاهرة نورا .. إلى اللقاء .

لما اختفى جسد جابر اقترب رفيق داني ، وكان داني صافنا بما سمع وذاهلا مما كشف له عن والده وهو يقول : وأبي البطل الشهيد أو الأسير أين هو حقا ؟! ابن الشهيد .

ظهرت نورا أيضا بعد انصراف جابر وقالت : ماذا قال لك اللعين ؟

قال وهو يعود للواقع : قال لي لماذا يرفضونني كزوج لك ؟

قالت : لماذا ؟

قال بهدوء : لأنني ابن زنا ، لا أعرف أبي !

صاحت ذاهلة : ابن زنا !! ولا تعرف أباك ؟

قال : هذا ما قاله المجرم بكل ثقة وطمأنينة .. عليّ بالحديث مع يعقوب قبل تفصيل الحديث إليكما .

وتركهما وخرج من النادي يبحث عن يعقوب ، اتصل ببيت أمه فأخبرته بأن يعقوب خارج البيت ، ذهب إليه في ناديه الليلي ، ولما التقيا قال : يعقوب التقيت بجابر وقال لي كلاما خطيرا يا يعقوب !

ـ ماذا قال لك الشيطان ؟

قال : قال إنهم يرفضونني ؛ لأنني ابن زنا لا أعرف أبي ؟

قال بعد صمت : تعال اجلس يا داني .. أهو قال لك ذلك ؟ أتحدثت مع أمك في ذلك ؟

قال : قلت أسمع منك أولا .

قال : أتحب أن تسمع الحقيقة ؟ نعم ، معزول ليس أباك ؛ إنما قَبل أن يكون أباك أمام القانون .. ولما هرب من لبنان تزوجت أنا أمك مرغما .

قال : ومن أبي إذن !

قال يعقوب : أمك يا داني كانت فتاة ليل ؛ كما أم زوجتك زوجة والد جابر .. وأنت تعلم مهنتي الحقيقية .. ولما علمت بحملها كان عليّ بالبحث عن زوج لها أمام القانون ؛ فكان الطالب معزولا ولما انتهى من الجامعة ، وحدثت النكبة رجع لفلسطين ؛ فكان علينا أن نعلن عن موته من أجلك يا داني .. وكانت أم نورا مثل أمك وأحبها عامر ، ولما ماتت زوجته أم جابر تزوجها .

قال : من أبي ؟

قال يعقوب : موظف أحد السفارات كما قال لي ، ولا أعرف أي سفارة ! أنا كنت أوفر له ولغيره بنات الهوى وشقق الدعارة مقابل المال .

قال : أمي لا تعرفه .

قال يعقوب : بالتأكيد لا تعرفه ؛ وربما لم يحدث الحمل منه يا داني ! لكننا زعمنا ذلك من أجل أن يتكفل برعايتك .. فأمك لم تكن له وحده يا داني .. كان الرجل من ضمن زبائنها ، فمنهم

معزول والسيد عامر وغيرهم والرجل خشية الفضيحة قبل أن يصدق أنه العشيق الوحيد لها .

قال : إذن أنا مجهول الأب يا يعقوب !

قال يعقوب بكل بساطة : عليك أن تتقبل ذلك يا داني !

قال : عليّ أن أقبل ذلك ! ونورا

قال يعقوب : ستقبل ما دامت قد رضيت بك زوجا .. وفي الأوراق الرسمية سيبقى الأستاذ معزول والدك .

قال : كابوس رهيب يا يعقوب !

قال يعقوب : دعك من الأخلاق والشرف والابن الشرعي كلنا أولاد آدم .

قال متقبلا ومتهكما : أهناك الكثير مثلي عندك يا يعقوب ؟!

قال يعقوب : كان على أمك ما دامت تعمل في الدعارة ألا تحمل بك !

قال : ولكنها حملت بي وجعلتم لي أبا .. وبما أنك تعلم الحقائق لماذا سمحت لي بحب نورا ؟!

قال يعقوب مفسرا : هو هذا السبب الذي دفعني إلى دفعك إلى الزواج منها ، فهم أي أسرتها يعرفون قصة أمك خاصة عامر ونهى وسيتقبلون الأمر ، وتعيش حياتك بسلام ، وتكفلت بدراستها من أجلك أنت ، هي بنت صديقة أمك وسيكتمون الحقيقة حتى ينجح الزواج، لم أكن اعلم أن جابرا يعرف هذه الحقائق من أبيه ، فلو تزوجت من أسرة غيرها وعرفوا هذا السر فسيحدث الطلاق.. هذه كانت وجهة نظري .

قال : ولكنهم رفضوني وكشفوا لي السر !

قال : ما كنت أظنهم يفعلون ذلك .. وما كنت أظن أن جابرا عارف بهذه الأمور .. وأن يجرؤ والده بالحديث عنها .. لكن يبدو أن حادثة اغتياله أو قتله خربطت دماغه .

قال داني متمنيا : أرجو ألا تؤثر هذه القصة على عملي يا عم يعقوب !

قال : لست الوحيد في بيروت مجهول الأب .. اهتم بعملك وحياتك ، وانسى جابرا وأباه .

قال : وهل ينسى الإنسان ذلك يا عم يعقوب ؟

الأم تتحدث

اتصل داني بزوجته نورا وبعد التحية قال : كلام جاير اللعين في مكانه .. أنا ابن زنا لا أعرف من أبي .. لا ادري لماذا أنثى تعمل بغيا وتحمل ؟ لماذا يا نورا ؟

قالت نورا: داني حبيبي الأمر لا يهمني كثيرا .. وأنت لا دخل لك بفعل أمك ، وأنا بحبك وكنت أخذ الموانع ، ولو حملت منك قبل الزواج الرسمي إما أن اقبل الحمل أو أتخلص منه لست منزعجة بمن أبوك .. وها هي الحرب تأكل الأخضر واليابس.. انس واهتم بعملك .

قال : عجيبة برودة أعصابك يا نورا ! أنا في غاية الغم والضيق .. لماذا قبلت باستمرار الحبل وهي لا تعرف من والده ؟ !وضحك يعقوب على معزول وجعله أبا ، ونفذ الأب الحقيقي

قالت نورا: لا تنسى يا داني أنك أمك جاهلة مثل أمي .. كلتاهما قرويتان هاربتان من بلدتيهما خوفا على حياتها ، وكن صغيرات ويحتجن للمال للعيش والحياة عندما جئن بيروت الصاخبة وعلى مثل هؤلاء الساذجات عيش يعقوب زوج أمك .. والعجيب أنه تزوج أمك وأبي تزوج نهى .

قال داني معللا : الحياة معهنّ سهلة يا نورا ! والتخلص منهنّ أسهل .

قالت نورا: إذن عش حياتك ولا تتطلع إلى الوراء يا حبيبي !

قال داني : الناس لما تعرف أني دكتور من غير أب .. ابن زنا .. كيف سأعيش بينهم ؟! نحن لسنا في باريس أو برلين .

قالت نورا: تتعب قلبك بدون نتيجة .. دعنا نعيش حياتنا

قال داني: سأذهب أتحدث مع أمي.

قالت نورا: ماذا ستفعل لك أمك ؟

قال داني: لماذا لم تلد من يعقوب ؟!

قالت نورا: كأنني سمعت نهى تقول لا يرغب بالذرية ويكره الذرية والأطفال .

قال داني: أريد أن أعرف فقط لماذا حملت بي ؟ ولم تحمل من القواد يعقوب ؟

قالت نورا: حسنا نلتقي في الشقة !

قال داني: احذري الحمل قبل إنهاء الكلية

قالت نورا: حريص اكثر منك.

لما جلس قبالة أمه في شقة يعقوب قالت : اتصل بي يعقوب ، وحدثني ما أعلمك به الشيطان جابر اللعين.

قال داني: هون عليّ إطالة الحوار .. لماذا غلطت وحملت يا سيدتي؟!

قالت فاتن بهدوء واستعداد : غلطة يا داني ! مللت من التنقل بين الرجال ومن شقة لأخرى كان موظفا في السفارة وسخيا معنا أنا وأم زوجتك ؛ فحسبته شخصية ذات مقام رفيع يخشى الفضيحة قلت لو حملت لعله يتزوجني ليحمل الابن اسمه.

قال داني: أنت رغبت بالحمل لترك الدعارة .

قالت : نعم ، هذا ما فكرت فيه تلك الأيام ، ولما حملت لزمت الصمت أول الشهور ، ثم اطلعت يعقوب على ذلك السر فجن هو الآخر وأخبرته بعد أربعة شهور حتى لا يحدث إجبار على قتلك ، تعبت من العمل ، ورفض الرجل الاعتراف بك كما قال يعقوب ، ولم نعد نذهب إليه أنا وأم زوجتك ، ورتب يعقوب لحل المشكلة زواجا صوريا من معزول ، وتحمل أن يكون والدك لحاجته للمال لإكمال الدراسة وإقامة علاقة معي بدون مقابل ؛ وليس لي إلا أن افعل ما يريده يعقوب ، وتزوجنا صوريا وتركت الحانات ودور البغاء وعشت مع معزول حتى أنهى الجامعة وعمل قليلا مع الوكالة ، ثم ذهب مصر وإلى غزة ، وأمام دموعي ودون أهل وطفل عمره سبع سنوات تزوجني يعقوب من أجلك خشي أن أتخلص منك وتحقيقات وأعود للحانات لتدبير المال .. هذه قصتي مع معزول .

كان داني يعلم أن والدته بدون أقارب منذ وعى لعدم زيارة أب أو أم أو أخ أو أخت ، وسمع من يعقوب أنها كانت هاربة من بلدتها إلى بيروت وتعمل في الحانات ، وشفق عليها وتزوجها من هذا الباب بعد اختفاء والده معزول وذهابه للقتال في غزة أثناء العدوان الثلاثي أو حرب

السويس ، ويعلم كذلك عن زوجة عامر أم نورا ما يعلمه عن أمه ، وأن أقارب عامر لما علموا بزواجه بنت هوى قلّ اتصالهم به ، واصبحوا مجرد أقارب، فلم يكن الأمر مقبولا لدى العائلات المحافظة أن يتزوج احد منهم امرأة دور البغاء والمراقص ، وكلاهما يعقوب أو عامر لا يهمهم رأي الأقارب كثيرا حتى أن والد عامر حمدان لما عرف حقيقة نهى وعملها كبغي كان يرفض أخذ أي مال من ولده رغم الفقر والبؤس ، واذا حضر الرجل وزوجته بعد الاستقبال يتعذر حمدان بتعبه ببيع الترمس والحلوى على عربة ، ويدخل غرفته متمددا ويترك زوجته أم حازم مع ابنهما وكنته ، وكان يتعجب من زواج عامر من ساقطة وما الذي أوقعه في حبها وهيامه بها وأنه لم يجد في بيروت إلا إياها، ويلوم الغربة والانفتاح الغريب عن بلاد العرب الأخرى ، فيسمع الجواب أن الأمر في بيروت اكثر إشهارا من العواصم الأخرى ، فالكحول تباع وتقدم دون مواربة في اغلب الدول العربية والإسلامية وشوارع الإباحية دون حرج ، ولكن حرية التعبير مسموحة في بيروت اكثر من غيرها من بلدان العرب والإسلام .

فصمت داني أمام الحقيقة والواقع المر ، ويسأل : لماذا تركني أبي واستعر مني ؟ هل لأنني ابن غير شرعي ؟ ما هو الشرعي؟ كيف يتزوج موظف سفارة فتاة ملهى ؟! تعبت أمي من الزنا فظنت بهذه السذاجة سيقبل السفير أو مساعده بالرضا بالزواج منها.. يعقوب هذا من هو ؟ هل هو ابن زنا ؟ لكن له عم يتزاوران.. أبوه أمه أسرته .. يبدو أنه مهاجر ، لا يتكلم ويفصح عن وطنه الأول.. وكيف قبل معزول أن احمل اسمه ؟ هل النكبة أثرت عليه؟ أنا لا اعرفه جيدا ؛ إنما اعرف صوره مع أمي ، ولماذا اختفى ؟ وهل حقا تطوع لمحاربة اليهود ؟ أي مبادئ يحمل ؟ ليتني استطيع الجلوس مع والد نورا وأسمع منه ؛ ولكنه بعد نجاته وهلاك أطفاله اعتزل الناس والعمل .

سأل : كيف تزوجت يعقوب ؟

قالت: لست ابن يعقوب .. السيد طيب وأشفق عليّ وعلى نهى ، والتقيت به أثناء عملي في حانة جانتي .. كنت ساقية نادلة آتية من الريف .. وكان يتردد عليها، وعرف قصتي وقصة نهى ،

فأصبح مسؤولا عنا ، وتعرفت على السيد معزول في حانة جانتي ، ثم اصبح يمارس الجنس معي ومع نهى مقابل المال والليرات ، وكان عامر والد نورا متزوجا قبل المجيء للجامعة في بيروت وكثير من طلبة الجامعة أبناء أغنياء وميسورين ، ويفيض معهم الدخل فيترددون على الحانات للسكر ، ويتواعدون مع البنات ، أو يدخلون دور البغاء ؛ كما ترى هنا عمارة قريبة منا يوجد فيها فتيات من بلاد شتى للدعارة ، عامر احب نهى رغم أنه متزوج قبل مجيئه إلى هنا، أما معزول كان ابن احد التجار الصغار في وطنه كان اعزبا ، كان السيد يأخذنا إلى رجال كبراء ، ولا يسمح لنا بمعرفة وظائفهم في الجيش في السفارات من البلدان الغربية ولا هم يتكلمون عن وظائفهم ، كانت بيروت سويسرا العرب مشرعة لكل سائح ، ثم ترك يعقوب نهى لعامر وغيره وعلم منها أن عامرا سيتزوجها ، وأن أهله هلكت من مشوار الهجرة ، وكانت حاملا وماتت بعد الولادة ، وقبلت نهى به ، وتعهدت بترك الزنا ، وهو لم يتخلى عن ذلك ؛ ولكن قلّ وجوده في الحانات، وقنع معزول بالزواج مني ليكمل الدراسة فقد عجز أهله عن تدريسه بسبب الكارثة والمأساة الفلسطينية ، وكان وضع الناس صعبا وفقدت العائلات المهاجرة الشباب والزوجات حتى سقطت بعض نسائهم لفقرهن وموت معليهن بما سقطنا به.. الحرب كارثة يا داني .. تخرج معزول وهو زوج لي وعمل مع الوكالة وهل تعلم أنه منذ تزوجنا لم يقربني كزوجة ؟ ولم يمنعني من العمل ؛ كما فعل صاحبه.. تطوع للقتال في حرب خليج السويس ولتحرير غزة ، وغادر لزمن لمصر وقد سمحت مصر للفلسطينيين بالعمل ضد إسرائيل في غزة، وانسحب اليهود منها كما تعلم بعد ضغط الدول الكبرى ، ولم يرجع معزول ؛ بل سمعنا أنه انتقل للضفة الغربية التابعة للأردن للعمل الفدائي وأمام هذا الواقع قبل يعقوب أن أكون زوجته ، وسكنت في هذه الشقة ، وعلاقتي مع نهى انتهت منذ تزوجها عامر ، وتضايق أهله من زواجه بغانية ، ولكنه تمسك بحبه وهواه ، وولدت خمسة ، هلك ثلاثة منهم في غارة على مدرسة وذلك في مطلع الستينيات ، وبقي عنده جابر اللعين من الأولى ونورا وآخر من صديقتي القديمة نهى ، وأحب يعقوب زواجك منها وتكفل بتعليمها الطب كما علمك .

قال داني :لماذا فعل ذلك ؟

قالت بعد دقيقة تفكير : أقول بصراحة ؛ لعله يشك بأنها من صلبه .

قال داني :جنون هذا ! وعامر يعلم بهذا الشك .

قالت : كان يعقوب يضاجعها قبل زواج عامر منها ، ومن أول سنة زواج ولدتها ، ربما يشك فكان يعقوب له سيطرة علينا ، ويستغلنا حتى رغم زواج عامر منها ، كان يضغط عليها كان هو الآخر يحبها قبل أن يتعرف عامر عليها ..كانت جميلة في صباها ؛ كأنها أوروبية .

قال داني :يا الهي! يا للنساء !!

*****

قالت نورا: ألهذا الحد أزعجك كلام جابر الحقود؟

قال داني بنوع من الحسرة : جابر حر وابن شرعي يا نورا ليس مثلي لقيط .

قالت نورا: هو بعيد عنا ، ولم يتربى في بيت والديّ ، هو عاش في المخيم بين جده وأعمامه ونساء أبيه وخالاته وأخواله .. كان يأتينا كزائر وضيف خشية أن يتشاجر مع امرأة أبيه ، ولم يكن يتصور أن زوجة أبيه فتاة ليل في أول شبابها ؛ لكن فتاة وحيدة في مدينة كبيروت دون أهل وأقارب ومال ماذا ستفعل في مدينة معاصرة يا داني ؟!

قال داني :وأمي نفس المشكلة .. الماضي مؤلم يا نورا ؛ لعل الحب الذي جمعنا يزيل الهم والغم

قالت نورا: لنعيش لأنفسنا

قال داني : أمي ليس لها إلا أنا.. شيء محزن !

قالت نورا: ويعقوب!

قال داني : يعقوب مجرم .. قواد .. بترون كما يقال هنا.

قالت نورا: اشفق عليهنّ.

قال داني بحدة : استثمرهنّ في دعارته .. لا شفقة ولا حنان عند القواد.

قالت نورا لتغيير المأساة : ألا نريد أن تقف التفجيرات؟

قال داني :لا أعتقد انتهاء الصراع وأنه سيقف .. هذه قوات متنافرة وحاقدة .. والثارات لا تتوقف .. وهناك من يستغل ويؤجج هذه الطوائف والأحزاب الكثيرة والمتناقضة في الغايات والأهداف.. وأكثرها يعمل لجهات خارجية وأجندات دولية .. دخل السوريون لوقف الحرب وحماية الناس.. ثم وقفوا مع الموارنة ، ثم انقلبوا عليهم ، وباع الموارنة خاصة الكتائب أنفسهم لإسرائيل ؛ كما تتحدث التسريبات في الصحف العبرية والدولية.

****

قال يعقوب لداني ونورا: كنا حريصين يا داني ألا نطلعك على حياة وبؤس أمك قبل زواجي منها ، وحق هي لا تعلم من هو أبوك البيولوجي ، وأخطأت خطأ كبيرا بالسماح لنفسها بترك موانع الحمل يا نورا ! فليس من السهل أن يقبل زان بقبول امرأة وطفل في رحمها وهي تتنقل بين الرجال، فهو لا يقتنع ويصدق بأن هذا المولود منه ، فهي لديها أفكار خاطئة عن الخواجات، فكان معزول مستعدا لتحمل اسمه لحاجته للمال لإتمام الجامعة والسنوات الأخيرة ، فقد خرج أهله من فلسطين بلا مال ، وقد قتل والده وأخوه الأكبر أثناء الأحداث ومع الثوار ونتيجة الانفجارات من قبل يهود صفد ، وكان لوالده اتصالات بحركة الثوار فتمت تصفيته كما قيل ومن نجا من العائلة جاءوا ببيروت عالة على الصليب الأحمر حدثني والدك بظروفه ، وقبل الأمر وتخرج قبل أبيك من جامعة بيروت، ثم تحمس للعمل مع الناصريين وأتباع ناصر في بيروت ، وقبلهم مع القوميين العرب وديع وجورج فذهب لغزة لطرد اليهود منها متحمسا كغيره من الشباب الحاقد والثائر ، وهناك كما علمت من أبيك أصابته رصاصة أو شظية ونقل للعلاج للضفة الغربية التي ضمت للأردن سنة ٥٠ ، وتزوج وشارك الفدائيين في الأغوار ، والتقى بأبيك فيها ، وقبل أحداث أيلول في عمان تسلل وعاد لزوجته ، وكأنه يسكن في رام الله مخيم الأمعري أو الجلزون .. فهو لا يمت لك بصلة نسب ترك بيروت إلى مصر ، وقد طلق أمك رسميا قبل المغادرة لغزة .

وجد داني أن زوج أمه يملك ذاكرة قوية ، ورغم انخراطه في دور البغاء والغانيات يقرأ ويتابع

السياسة وحكايات الناس ، وأنه لا يعلم من أبوه ، وأن أمه لا تعلم ذلك ؛ لأنها كانت تبيع جسدها لأي دافع .

وسافر إلى مصر وحيدا ، ثم اختفت أخباره عن نورا وأمه ويعقوب ، ولم يذكر لهم إلا أنه ذاهب إلى مصر في جولة سياحية وترفيهية وأنه غير قادر على الحياة في بيروت، وبعد شهور قضاها بين الحانات والفنادق سافر أوروبا عن طريق تركيا ، وكانت نورا تقول ليعقوب: لم يحتمل العيش معنا ، لم يتقبل فكرة أنه ابن غير شرعي لأب مجهول ، ومنذ سافر لمصر انقطعت أخباره عني يا يعقوب ! وعليك أن تتحمل نفقة الشقة حتى أتخرج ، ولن أنسى فضلك .

قال: لماذا لا تعودين لبيت عامر؟!

قالت: منذ تزوجنا لم أرهم .. بأي وجه سأقابلهم ، وقد تشددوا ضد زواجي .. وعرفنا سبب التشدد والرفض بعد العقد الرسمي .

قال: ما كنت أظن هذا التشدد ! فهل ترين أن والدك يجزم بأنك من صلبه يا نورا ؟

قالت: هذا لا يهمني يا يعقوب ! تحملني مما تبقى من شهور للجامعة ، ولا أنسى حقا فضلك ومصروفك عليّ.

قال: كان عليّ فعل ذلك من أجل داني وفاتن .

تخرجت نورا لما بدأت حرب الثورة الفلسطينية مع إسرائيل بما يسمى الاجتياح للعاصمة بيروت ، وفرض بشير رئيسا لجمهورية لبنان، ثم اغتياله قبل حفل تنصيبه ، وعلمت كطبيبة في عيادات وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة التي تعمل على مساعدة اللاجئين اجتماعيا وتعليما وصحيا ، وعانت بشدة نتيجة أحداث الحرب والخروج الفلسطيني لوقف الحرب فالتقت بآلاف الجرحى والقتلى والإصابات ورغم انسحاب مقاتلي الثورة استمرت الحرب الأهلية بين الطوائف ، وظهور حرب المخيمات بين الفلسطينيين والشيعة بحركة أمل .

اتصل جابر بنورا وأخبرها بوجود رسالة من داني فإذا تحب الاطلاع فلتحدد مكان للقاء فقبلت الطبيبة اللقاء ، وهي قد تصالحت مع والديها أثناء الحرب وتعرض أمها لشظية فالتقتا في

مستشفى بيروتي ، واهتمت بمداواة أمها ،والتقت بعامر أثناء عيادته لزوجته.

اطلعت نورا على رسالة داني التي وجهها لجابر فقالت بحيرة : لماذا أرسلها إليك ؟فكان الحق أن يرسلها لي.

قال جابر : لا ادري ! هل تقبلين الطلاق ؟

قالت: ألم نتطلق منذ هرب إلى مصر ؟

قال جابر : طلاق رسمي

قالت: اكتب له بقبولي ذلك

قال جابر : ربما بعثها لي بصفتي محامي وأخ لنورا.

قالت: الله اعلم ! ما أخبار أبي ؟ منذ غادرت أمي المستشفى لم أرهم .

قال جابر : لا يخرجان من البيت.. أبي على وشك الانتحار .

قالت باستغراب : كان يائسا .. لماذا ؟!

قال جابر : صدقي لا اعلم .. اتصالنا ضعيف .. فهو تركني منذ ولدت عشت في بيت الجد

قالت: كيف زوجتك المحامية؟

قال جابر : محامية مثلي كما قلت ، وتهتم بالصحافة اكثر من القانون ، فوالدها رئيس تحرير جريدة الضوء الأسود .

قالت: الضوء الأسود ! أهنا جريدة بهذا الاسم ؟ أهناك ضوء وأسود ؟ لا وقت لديّ لقراءة الصحف ومشاهدة التلفزيون .. ساعات طويلة بين الجرحى والمرضى .

قال جابر : نعم ، كان الله بعونكم أهل الإسعاف ، وهذه الحرب لا تكاد تقف .

قالت: هل هي فلسطينية ؟

قال جابر : من صيدا.. لبنانية.

قالت: لعلكم متوافقون فقد جعلت الحرب شرخا اجتماعيا بين العائلات.

قال جابر : إلى حد كبير النساء سر عميق

قالت: النساء مسكينات وضعيفات

قال جابر : لا احد مسكين في هذه الغابة، ما يفعل الناس ببعض أشد وأقسى مما يحدث في غابة الأسود والذئاب .

قالت: هل سيطول انتظار الطلاق ؟

قال جابر : أنت لو قدمت طلب طلاق بعد اختفاء عشيقك ...

قالت محتجة : زوجي يا جابر

قال جابر مصرا : كان عشيقا قبل الزواج الرسمي ، هو قال لي ذلك لما تحدث عن زواج منك اعترف لي بعلاقتكم المحرمة ، وأنه ربيب يعقوب

قالت باستسلام : حسن! أنا لا احب إطالة الحديث معك.. لديّ صديق ينتظر طلاقي بفارغ الصبر .

قال جابر : صديق واحد .. نسمع عن موظفي المستشفيات الشيء السيء

قالت: ما تسمعه صحيح .. هل تسمح لي بالانصراف؟

قال جابر : تفضلي.. تمنيت أن نكون أخوة بحق.

قالت: أنت المقصر .

قال جابر : أمك السبب ، وأنا عشت مع جدي وأعمامي وفي قلب المخيم .

قالت: أتمنى لك التوفيق

قال جابر : وأنا .

قالت: لا اعتقد!

قال جابر : لماذا ؟!لأني كشفت أمر داني لداني.

قالت بألم : هذا الأخطر .. حرمتنا من بعض!

قال جابر : يعقوب يعلم ، وفاتن تعلم ، وأمك تعلم ، وأبي يعلم، لم يكن سرا إلا عنه وعنك

قالت: أين يعيش داني؟

قال جابر : الرسالة جاءت من مصر حسب الطوابع ؛ ولكن قد لا يكون هو مصر .. أرسلها لصديق في مصر .. والصديق أرسلها على بريد مجلة الضوء الأسود ؛ ربما يكون داني يعيش هنا .

قالت: الراجح في أوروبا في فرنسا

قال جابر : إلى اللقاء شكرا على قبولك دعوتي .

هزّت رأسها ، واختفت من قاعة طعام الفندق الكارلتون

ماتت نهى بعد حين متأثرة بإصابتها بشظية أثناء وجودها في السوق حيث حدث انفجار أو سقوط قذيفة ، قامت الأسرة والمعارف بمراسم الدفن ، وحينئذ عزم عامر على مغادرة بيروت دون علم أي إنسان حتى والديه ، خرج لسوريا برا واتجه للشمال السوري ، وأثناء وجوده في احد الفنادق مات ، ولم يكن بينه وبين وفاة نهى سوى شهرين، ودفن على نفقة جمعية خيرية فلم يكن يحمل إلا هوية قديمة لبنانية ، وصعب على الجهات الرسمية البحث عن أهله بسرعة ولم يكن معه إلا بضع آلاف من الليرات اللبنانية والسورية وبعض الملابس .

وبعد شهر علم جابر عامر بموته في شمال سوريا وذهب لمدفنه وقرأ عليه الفاتحة ، وتسلم ما احتفظ له به من مال ، وألقى ثيابه في سلة نفايات ، وعاد لبيروت حزينا لنهاية والده وعزى جديه بوفاة ابنهم ، وقاموا بعمل عزاء مختصر ، ولم تشترك فيه نورا ولا حتى جابر ، وطلقت نورا رسميا عن طريق مكتب محاماة ، وأخذت تستعد للزواج من جديد ، فالحياة لا تتوقف بموت احدهم أو عيش احدهم .

واتصل بها يعقوب معربا عن وجود عريس مناسبا لها فقالت : سأتزوج ابن عمتي الدكتور إيهاب ، قد فقد ساقه خلال هذه الحرب، وكان قد عرض عليّ نفسه بعد تخرجي وعملي معه. في الوكالة ، فاعتذر لعريسك ولك ولأم داني .

قال يعقوب : ألف مبارك .. وهل من أخبار عن داني؟ أمه تموت حزنا وشفقة عليه.

روت له رسالة جابر ، فاستغرب الأمر ، وتمنى لها كل خير ، وفرح الدكتور إيهاب شريف لما علم بقبولها له رغم عجزه ومشيه بساق واحدة ... إنها الحرب !





قريتنا ..
هو أنت لاجئ
وهج الحرب
موقعة الثلاثة والعشرين


هو أنت لاجئ
سافر لبيروت للدراسة في الجامعة للغة الإنجليزية
ليكون معلما أو موظفا في ديوان الاحتلال والمستعمر
حدثت النكبة الكبيرة وهلكت زوجته
فتزوج فتاة من بيروت
كانت تعمل بنت هوى
فاقرأ هذه المأساة المركبة !